مشاعر مضطربة

نجدي عبد الستار



2014

مشاعر مضطربة

تأليف : نجدي عبد الستار

الطبعة الأولى : 2014م

رقم الايداع : 2013-8680

الترقيم الدولي : 983-977-94-11-82-9

الإخراج الفني: محمد غريب
mohdghrib@gmail.com

تصميم الغلاف: إيمان صلاح

دار روعة للطبع والنشر والتوزيع
المدير العام: هبة الشرقاوي
هاتف: 00201140178144
darrawaa@yahoo.com



الإهـــداء

إلى رجل وهبني الحب و علمني كيف أكون حرا .. إلى أبي ..

(1)

وقف يسترجع شريط ذكرياته، محاولا البحث عن ذاته المفقودة خلف اعتقاده بأنه ليس كأقرانه، فكرة زرعها أبوه «محمد أبو علي» في نفسه وهو صغير، ولم يكن يعرف معناها، ولا يدرك مخاطرها، حتى عزلته عن الناس.. لم تكن فكرة أبيه وحده، بل أكدتها الحوادث المحيطة به من كل ناحية، فجعلته يدرك أنه رجل اللحظة التي بها سيتغير كل شيء. ذات يوم عبرت امرأة شوارع قريتهم حاملة صرة من الرمل على رأسها، جمعت فيها تجارب السابقين وأماني المتوهمين في أحجار صماء، لتقرأ بها الطالع الذي لا تملكه ولا تعرفه، إلا أنها تستنتجه من بين العيون المتطلعة لغد ينتشلها، ذلك كله دون أن يشعر بها أحد. علم من أبيه أن هؤلاء يدركون أماني المتوهمين المتعلقين بهذه الحجارة، لكنهم في الواقع لا يعرفون منها شيئًا، و أنهم يحاولون أن يرسموا البسمة على شفاه تعودت أن تقضم بعضها من شدة الوجع والحرمان. يومها كان في العاشرة من عمره يلهو مع أحلامه الممتدة بامتداد السماء، لا تقف أمامها عوائق، كانت معانقة الأفق؛ ليجري خلف الشمس في كل طريق بحثا عن غد يكون فيه سيد قراره، وككل الصغار إذا شعر بضيق الحياة تغلَّب عليه بالتحليق في سماء من صنعه، سماء لا يراها غيره، سماء تخلف الابتسامة على شفاه غضة الحلم. في صباح يوم يشبه يومه البارد وقفت هذه المرأة أمام بيتهم، تلك العابرة الشوارع والأزقة، والبائعة الأحلام لكل من سكنه الوجع والمنتشلة الضائعين. بعد دقائق استدارت حول نفسها مستقبلة إشارات آتية من مكان لا يعرفه غيرها، ناظرة في عين «سالم» الصغير الذي يستقبل الحلم على أنه الحقيقة. اقتربت

أكثر وأكثر كأنها ستبتلعه في عالمها المغيب خلف التخمين. بعد لحظات وضعت يدها على شفتيها، ومسحت بالأخرى على شعره، ثم نفثت من ريقها حبات تناثرت على قسمات وجهه؛ لتلتهم قسماته مغمضا عينيه الواسعتين. صمتت لحظات، ثم همست بكلمات متشابكة مخبرة عن مستقبل موجع ومؤلم في كل سطوره حتى توقفت وهدأت عاصفة التوقعات لتنهي السطر الأخير بابتسامة متمنية في هذا السطر لو تغير الأمر. توقفت عن الكلام تماما ، واهتزت كشجرة صفصاف عارية حتى من لحاها، وبصوت مرتعش قالت مصوبة نظراتها بعين «سالم»:

- النجاح لك، لك يا صغير في نهاية الممر.

بحركة سريعة التفَّت حول نفسها مدخلة الخوف في قلوب الباحثين عن درب مغمى عليهم في أفق وحكايات ما زالت صبية. نظرت مبتسمة، ومنتهية من بشارتها، لتمد يدها لأمه متمتمة بصوت مكتوم معاودة طريقها بخطوات ثقيلة مخرِجة لسانها للمتوهمين منهم في حبات النرد، وفي إشارات تغيب من يأتيها عن الوعي. كنت أنظر لها ولملابسها الغريبة عن تلك التي ترتديها نساء الحارة أو حتى التي ترتديها جدتي بملسها الأسود كظلام الليل، كانت ترتدي الأسود مع الأحمر بشكل لافت، تربط وسطها بزي من القماش الأخضر، تظهر سمينة على الرغم من نحافة وجهها، كانت خطواتها مشبعة بالوجع من حكايات مرت عليها نثرت لها السعادة أو حكايات جعلتها تكظم وجهها خوفا من قادم لا يعلمه إلا الله. مدت يدها لأمي.. ولَّت دون أن تنبس بحرف..

قالت أمي عنها وهي تمصمص شفتيها:

- ترسم للآخرين البسمات على شفاههم وتمنح السعادة لقلوبهم بأمل اصطنعته من محض خيالها..

أكملت أمي:

- من العجيب أنها في الوقت نفسه تحتاج من يخبرها عن القادم الذي ينتشلها من الألم ومن وجع الفقر الذي يلاحق قسماتها، ويترك علاماته القاسية عليها وندبا لا تمحوها الأيام المتبقية لها.

لم تكن أمي تؤمن - من قريب أو بعيد - بهؤلاء المارين في الشوارع، ويبيعون الخرافات، على حد قولها، فإيمانها العميق بالقدر يجعلها مستعدة للقادم بثبات دون خوف. أسرعت أمي خطواتها مع حروفها وعبرت بوابة بيتنا، الشبيهة بوابات القلاع قديما. كانت بوابتنا منقوشا عليها تاريخ العائلة من خلال الضروس والأسنان المحشورة فيها والراسمة خطا أفقيا وآخر طوليا لملامح الزمن الذي مضى. كانت البوابة نِعم المعلم، منها عرفت أن الأشياء الصغيرة المحفورة في الأجسام العملاقة كثيرًا ما حملت تفاصيل كثيرة عن حياتنا، لتظل ساكنة في قلوبنا، وعندما ننظر لها تحرك الكثير من مشاعرنا، وكلما اتجهت أبصار ذاكرتنا ناحيتها، و شدنا الحنين لتلك الأيام التي مضت. ذات يوم تفحصت البوابة بدقة، وكثيرًا ما وقفت أمام ضرس عملاق محشور بوسطها، تخيلت جدي بيده المفلطحة وأنفه الكبير ونظراته الحادة. لم يكن تصوري في مكانه بعد أن أعلمني أبي أن جدي كان جميلا على الرغم من بنيته الضخمة، ما جعلني أدخل في نوبة من الاندهاش والنظر لأبي وللضرس، لم يمهلني أبي في حيرتي، وأعلمني أن ضرسه خُلع قبل موته بشهور بسيطة وهو من حشره بوسط البوابة. يومها قال:

- هذا إرثي الحقيقي، هذا ما سيتبقى مني، الدنيا للزوال.

كانت كلمات جدي تخبر عن موته في القريب، على الرغم من أنه كان فتيا وجميلا، إلا أن إحساسه بالرحيل لم يغادره، وكأن ملك الموت كان

يصحبه، مات جدي وترك إرثه، إلا أنه ظل محفورا في القلوب التي كانت حوله، يتنقلون أخباره وأفعاله التي لم تُنسَ، كم أنقذ قريته من شبح الجوع، وكم أخرج من جيبيه حتى ترك من الإرث ضرسا عملاقا واسما لا يُنسى بين البسطاء من أبناء قريتنا كلما تعرضوا لبعض المخاطر، بعد سنوات كثيرة من موت جدي وجدوا جسده كما هو لم تأكله الأرض. تبسم أبي وهو يصف جدي «علي» بأنه لم يستطع أن يفارق جدي «حسن» ومات بعد شهور قليلة من موت أبيه، ليضحك أبي قائلا:

: اللاحق بالميت يكون أكثر حبا له

-. نظرت لأبي وهو يتحدث بصوت منخفض ويصف أجساد أجدادي قائلا:

- أجساد الصالحين لا تأكلها الأرض، بينما أجساد الأشرار أحيانا تلفظها الأرض.

لم أعرف معنى «تلفظها» إلا عندما كبرت وعرفت العالم الملفوظ حتى من ذاته. في ذلك الوقت عرفت أمرا واحدا هو دموع الحاج «محمد» التي تسابق بعضها عندما يتذكر أباه وابنه الذي خطفه الموت، أخي الذي تركهم في غفلة ومضى تاركا الحزن يسكنهم. كانت اللوعة تظهر في عيني أبي كلما جاءت سيرة الموت. سمعت من الجميع أن أخي كان «ابن موت». هكذا الناس يصفون حالة هؤلاء الذين يودعون الحياة دون سابق إنذار؛ بأن وجوههم مبتسمة وراضية ومسامحة وأنها تبحث عن الموت، وأنهم يذهبون بأجسادهم، وتبقى أرواحهم ترفرف حولهم كأنها تحرسهم من غبن الدنيا.

قال الحاج «محمد أبو علي» ذات مرة:

- الأموات يسمعون المارين ويعاتبون المخضبين بوحل الحياة.. هم لا

يتكلمون، لكن ابتسامتهم غاضبة ممن لم يتحركوا ليغيروا واقعا سخيفا ومؤلما، بل يظلون هكذا لا يملكون إلا إخراج أصوات لا تُظهر إلا ضعفهم.

ترسخت الفكرة في رأسي أكثر بعد وداع الحاج «محمد» للدنيا. فاضت روحه لبارئها فوق التبة القريبة من البركة. المكان نفسه الذي استقبل ميلاده في فيضان النيل الذي أرغم كل أبناء القرية على الاحتماء بالتبة. أقاموا هناك أسبوعا كاملا. شهد الكثير من الأمور المدهشة والموجعة، منها: زواج عمتي «بهية»، تقدم لخطبتها «فتحي أبو عبد الجليل»، كان طويلا تهابه قبل أن يأتي لك. لا يخاف من شيء، سمَّته القرية عفريت الليل. حكوا لأبي عن الخطبة وعن الفيضان، وعن التبة التي أصبحت جزءا من ذكرياته، ظل يذهب لها كلما شعر بضيق، وكلما غاب وجدوه فوقها يتذكر من ماتوا من أهله وأحبابه ويناجي ربه فاتحا قلبه للأفق.

استدرت أترقب المرأة. لم تبعد عن عيني، حلمت بالمستقبل العظيم الذي غرسته في نفسي، انتابني الخوف من مستقبل يمكن أن يقسو كالخريف وأن يسقط أوراقي واحدة واحدة دون أن يترك ولو واحدة تظللني إذا اشتد غباء من حولي وتركوني في صحراء الحياة أواجه موجات تصحر المشاعر، أخذت الكرة بحثا عن أصدقائي هاربا من نظرات أحاطتني. تواريت خجلا بالجري بعيدا عنهم. ناديت بصوت مرتفع على «خالد» و«شلبي» و«جرجس» وبقية الرفاق الذين ينتظرونني. حكيت ما حدث مع العرافة وعن النجاح في آخر الممر وعن اختلافي، ضحكوا بصوت مرتفع، وركلوا حكايتي مسجلين هدفا في مرمى القادم الذي لا يساوي عندهم مجرد التفكير فيه؛ لأنهم لم يعرفوا ما معنى الغد، وماذا يحمل، وما معنى أن تكون مختلفا، ولماذا نختلف عن الآخرين.. كنت مثلهم أسأل: لماذا يجب أن نختلف ما دمنا سنشعر بالوجع والألم؟ ضحك «وجدي»

صاحبنا سائلا:

- هل نختلف مثلا إذا أصبح لنا ذيل كالحمير؟

ضحك الجميع على اختلاف «وجدي». كان «وجدي» يضحك باستغراب ودهشة لا يقلان عن طرحه الذي أعقبه بكلمات مرة تزداد مرارتها كلما تذكرتها وتذكرت ما فيها من قهر الفقر واستبداده. إلا أن هذا الاختلاف دفعنا إلى أن نقوم بالتجربة وأن نعلق ذيولا ونجري خلف بعضنا حتى نشعر بهذا الشعور الذي يحلق بنا على كل ما حولنا. توقفنا عن الجري وحمل كل منا حجره ورماه بأعلى ما فيه، ثم انعطفنا ناحية حقول البرسيم، لنمارس الطيران بأجسادنا النبيلة دون وعي منا أننا نحلق ونخرب؛ لنسمع في صباح اليوم التالي غضب أصحاب حقول البرسيم التي كثيرًا ما وصفونا بكلاب ضالة تمارس اللعب على صفحات الحقول. توقفنا عن اللعب ونحن نلهث ليسأل «وجدي» مرة أخرى:

- أليس جميلا اختلافنا بأن يكون لنا ذيول؟

عندها تكلم «جرجس» بعد أن رفع يده على رأسه مصليا للأب والابن والروح القدس:

- هؤلاء يبحثون عن الحلم في نفوسنا دون أن ندري. هؤلاء يبحثون عن شيء مخفي لا يراه غيرهم، هم يحلقون على أوجاعهم برسم بسمة على أفواه الآخرين، صنعوا من كلمات متقاطعة أحلاما كثيرة لأناس متعطشون.

كان كلام «جرجس» يشبه كلام أمي وهي تعدو بوابة بيتنا ضاربة كفًا بكف. لم يسكت «جرجس»، لكنه أكمل:

- الحقيقة أنهم يصبِّرون أنفسهم على وجع الطريق بأحلام مزيفة ،

و لذلك فإن الأمر الوحيد الذي يجب أن نتبعه هو ألا نصدقهم ، يمكن أن نضحك على أنفسنا بكلماتهم. هكذا قال أبونا وهو يتلو أسفار المسيح علينا سفرا سفرا، أصر على أنه ليس كل ما يقال من هؤلاء التابعين القادم في حبات نرد، أو في ورقات يتلاعبون بهاحقيقة ، و أن رغبتهم في استقراء قادم لا يعلمه إلا الله هراء .

وقفنا جميعًا فاتحي الأفواه لكلام حكيم صغير اسمه «جرجس» توحد مع كلام أبيه. كان «جرجس» يتيما، مات أبوه مريضا، أبوه شارك بحرب أكتوبر، كم حكى لأبناء القرية عن البطولات التي قام بها. كان يفخر أنه خاض حربين، هُزم بواحدة وانتصر بأخرى، كان يسمى «جرجس ابن البطل». كم غبطناه على هذا وهو أيضا كم غبطنا على أننا نجد حضن آبائنا.

كنت أتأمل كلام «جرجس» بعد أن استوقفتني أسفارهم التي لا أعرف ما هي تلك المحملة على ظهورهم، وماذا تقول لهم.. لكن على كل حال كل ما يقوله «جرجس» عنها أنها دعوة للمحبة. كان «جرجس» لا يختلف عنَّا في شيء؛ يلعب معنا، ويأكل معنا، يتركنا صباح كل أحد عندما تقرع الكنائس بالصلاة، ونحن نتركه لنذهب للصلاة، هو يدعو لنا تحت أجراسه ونحن في مساجدنا. عدنا للذيول التي تخيلناها، ضحكنا مرة أخرى بصوت مرتفع على هذا الاختلاف دون أن يفهم بعضنا كلام الأب في ديره. كان الدير عظيما وأسواره عالية، ذات مرة سألت «جرجس»:

- ماذا بداخل الدير؟

ضحك بصوت مرتفع مستغربا السؤال، قائلا:

- الحياة.

قالها «جرجس» ثم توقف عن الكلام. لم يكن «جرجس» يفهم مغزى

السؤال ولا رغبتي في الكشف عمَّا هو مخفي خلف أسوار الدير، تعلَّم أن خلف الأسوار حياة تختلف تماما عن تلك الحياة التي نعيشها، هناك يتدرب على محاسبة الضمير. على الرغم من أنه لم يعِ ما يُقال عن الضمير، فإنه موافق على محاسبة ضميره؛ لأن الكلام المقدس لا مفر منه ولا مهرب. ورث «جرجس» ممن حوله أن كلام الأب لا تبديل فيه، وعليه أن يتقبله. «جرجس» يقدس ما يرثه حتى لو رفض بعضه من داخله، لم يختلف عنا في شيء فقد كرهت أن تشعل قناديل لموتى بينما الأحياء ينامون في الظلام، بأن تطعم قبور بينما الكثير يموت جوعا. ذات مرة ذهب «جرجس» واعترف بخطأ ارتكبه معي ، عاد وقال لي إنه يشعر براحة، عندما سألته عن السبب ضحك دون أن يجيب . كان بيت «جرجس» مكونا من أمه وأخته وهو وبقايا ذكريات بطل. كانت أمه طيبة . قالت لي ذات مرة : إنها تمنت أن تدخل الدير لكنها قابلت أبا «جرجس» ، وقع حبه في قلبها فتخلت عن الفكرة من أجله لتكمل منظومة الحياة، «أم جرجس» تقبل كل شيء دون أن تفكر. لم تكن «ماريا» أخته تقبل دون تفكير، كانت دائما تسأل وتحاور لكنها في النهاية تقبل مرغمة كأي صغيرة تنهر إذا ما شذ تفكيرها نحو مدى بعيد. ذات يوم كنا عائدين من المدرسة معا، تحدثنا عن الدير وعن علاقتنا بكل شيء قالت لي: تظل علاقتنا بالرب علاقة لا يعرفها، أحد فكم نتظاهر بالإيمان ويوجد داخلنا شك أحيانا يدفعنا للحياة الحقيقية وللوصول للرب بشكل صحيح. أكملت أن أمها قالت:

- عندما تشك فأنت موجود .

لكن حذرتني من الشك في كل شيء؛ لأنه سيعلمني الظن السيئ و لأنها أيضا لا تحب التفكير كثيرا . أكملت بأنها متأكدة أن أباهم في الدير

أيضا يقع فيما نقع فيه، ليس هناك معصوم، كلنا نخطئ، فلماذا نجلد ظهور بعضنا ونحن نتوارى خجلا مما نفعل؟ وقفنا عند الساقية، هنا كم التقينا معا دون أن نفسر لذلك سببا، حتى فسرته «ماريا» بكلماتها وهي تنظر للمدى ويدها تلامس الماء بأن الزهرة المغروسة في أرض خصبة عطرها يفوح إذا شعرت بيد تربت عليها. كنت اليد التي تربت على كتفها، وأهدهد شكها وأحترمه، وكانت هي اليد التي تعيد لي نسقي إذا اختل مني. تكلمنا عن الدير كثيرًا، تعجبت «ماريا» من أننا لا نملك ديرا كي نحاسب ضمائرنا فيه. عندها أوضحت لها أن الضمير يلازمنا في كل لحظة ومع كل فعل، ابتسمت عندها وهي تقول: المهم أننا نحاسب ضمائرنا حتى لا تشذ عن الحقيقة. الحقيقة كم أتعبتنا، تلك التي نبحث عنها في عيون البشر والنبات والحيوان. ظل دير «جرجس» وكنيسته وقرع أجراسها موطن تفكيري وأيضا موطن تفكير كل أصحابي. هذا الشعور جعلني يوما أذهب للدير مع «جرجس»، كنت متوجسا، وأسناني تصطك ببعضها مع رعشة تسري بجسدي النحيل، لكن رغبتي أن أرى «ماريا» في الدير منحتني مقاومة هذا الشعور، ودفعتني للمغامرة. عندما دخلت الدير من بوابته الشاهقة أحسست بالخوف، لكن يد «جرجس» أطبقت على يدي ومنحتني بعض القوة، كان «جرجس» قريبا مني يشعرني بأنه بالجوار. ظل توجسي مسيطرا عليَّ، كنت ألتصق بـ«جرجس» وكان «جرجس» مبتسما لشعوره أنه يحميني، شاهدني شاب من قرية أخرى وأنا معهم، جاء لي وسألني عن سر وجودي، لكن «جرجس» نهره وحذره من الاقتراب مني. كنت في تلك اللحظة صامتا وسألت: لماذا غضب هذا الشاب لوجودي؟ لم أكن أعرف اسمه، لكن صممت في داخلي أنني سأرد له صفعة كلماته، إلا أن «جرجس» طلب مني نسيان ذلك. شاهدني أبوهم

، ابتسم وقدم لي الحلوى، ثم ذهب لترانيمه التي لم أفهم منها شيئا. كان قرع الأجراس يهز وجداني مع أصواتهم خلف أبيهم وهم يرددون:

- يا أبانا في السماء.

لم أكن أدرك أن لهم أبا في السماء، في تلك اللحظة وضعت حلوى أبيهم في فمي، الغريب أنها لم تضِع منه أبدا وظلت كلمات ترحيبه في أذني حتى وأنا أسمع قرع أجراس أي كنسية. عندما خرجت حكيت لهم جميعا. الكل استغرب فعلتي إلا «ماريا»، عرفت أنني كنت أتشمم عطرها في أماكن الصلوات؛ فالمحبون يجدون السعادة في تلاقي أرواح من يحبون في الأماكن التي يترددون عليها، ويشعرون فيها بالأمان.

كان صوتنا يرتد في الفضاء، ونحن نجري بجوار دير «جرجس» الذي ذهب بعض غموضه عني، بعد دقائق كنا بالقرب من البركة التي تشكل جزءا من حياتنا، بل الجزء الأكبر في حياتنا المشتركة، إذا تجمعت القرية في رجل واحد وامرأة واحدة، على الرغم من أن لكل واحد قصة غرق بشكل مختلف. كانت البركة مكان لهونا ولعبنا، وشاهدة على قوة سواعدنا ونحن نلعب بأحجار على سطحها، لعبتنا المفضلة التي نحبها كحبنا لـ«السيجا»، امتلكت فيها مهارة عُرفت بها، لأفوز بسهولة وببراعة على الرغم من نحافتي. ذات مرة رميت حجرا فقفز مرات كثيرة، لم يصدق أحد ماذا حدث. ابتسم أصحابي، وظنوا أن الطفل القابع مع أمه هو من حمله وقفز به دون أن يراه أحد ليلهو مثلنا ومعنا. كانت البركة مصدرا لحكايات مخيفة ومسلية في آن واحد، إلا أن معظم المخيف ينصب في حكاية الحاملة صغيرها والمغتسلة من ظن الناس وأحكامهم المتسرعة والقاتلة. قيل: إنها ماتت باسم الظن السيئ، ودفعت ثمنه غاليا، ومعه أغلى ما تحمله المرأة من شرف ضيَّعه البعض بكلمة. حكاية من

ضمن الحكايات المتناقلة بين الناس سمعوها منذ تفتحت أعينهم على قراءة ما بين السطور المروية لهم مرارا وهم يحصدون ثمارهم، أو بين أكوام الحطب وهم يحتمون من برد الشتاء، مع الزمن انحسرت الحكاية، وأصبحت ذكرى تطارد كل من تسبب فيها مخلفة جرحا لا يندمل إلا بموت من فعل تلك الجريمة، بل وتطارده داخل قبره. «أبو خالد» واحد ممن شغفوا بها، وحاول مرارا أن يشاهدها. ذات ليلة وهو عائد من حقله بعد منتصف الليل وجدها تغتسل وسط البركة في ليلة مقمرة، كان الصغير على كتفها، انتهت من الاغتسال وانحنت قليلا بشكل يجعلك مستغربا، وكأنها تركع على صفحات الماء دون أن يقع المتشبث برأسها، بعدها اتجهت للقرية، كان الطفل ينظر له ويضحك وهو يسير خلفهما، حاول أن يعرف من هي.. أشار بعصاه فقط، نظرت له، ثم تركته عابرة على جسده الممدد، والغائب عن الحياة. استيقظ من غيبوبته كاتما خبرها، وشاعرا بالذنب لأنه ظن فيها يوما. أقسم «خالد» أن أباه يكتم الحكاية عن الجميع وكأنها أوصته بذلك. تركوا البركة، عرجوا حاملين كرتهم وهم يسمعون صديقهم «شلبي» وهو يحكي عنها، مؤكدا أنه ذهب إلى الحقل مرات كثيرة ليلا من أجل أن يراها، لكنه لم يرَها إلا أنه شعر بها حوله دون أن يراها ببصره.. قال إنه عاد ونام في تلك الليلة حزينا..

صمت قليلا، ثم رفع بصره للسماء مكملا قصته بأنه عندما نام شاهدها وهي تغتسل وسط البركة، كانت تمسح دمعة صغيرها، الذي ولدته وهي تلفظ أنفاسها الأخيرة، كبر معها وظلت كما هي. مسح «شلبي» دمعه وهو يصف ملامحها كأنه يعرفها:

- بشرتها تشبه نور الفجر، طويلة مغطاة الرأس تظهر خصلة تشبه عيدان القمح وقت الحصيد، عيناها خضراوان، بل بنيتان أو زرقاوان، لا

أعرف لهما لونا، لا تطلقان شرارا كما كانوا يقولون، أسنانها البيضاء تظهر على صفحات الماء. التفتت ونظرت لي، ثم أهدتني ابتسامة، اقتربت مني، مسحت بيدها على رأسي، وتمتمت بكلمات، ابتهلت بها لله من أجلي. منحتني حبا وعطفا، شعرت بنبضات قلبها تسري في أناملها؛ فالموتى يشعرون بحب الداعين لهم بالرحمة والخير.. لم يصمت، مسح دمعته، ثم أكد أنه لم يصدق ما قيل عنها أبدا.

أكمل وهو يمسح دمعه المتلاحق:

- مضت مخلفة حزنا عليها وفرحة لأنني رأيتها. منذ هذا اليوم أصبح شعري لا يقف خوفا من سيرتها. تمنيت رؤيتها بكل وقت؛ فالأمنيات الجميلة تولد إذا ودعنا الفزع وتغلبنا عليه، وقهرنا كل أسبابه . هكذا قال لي أبي وهو يحذرني من الفزع : الفزع فكرة بداخلنا تسيطر علينا حتى تطفح على جلدنا، وتفرز بعضا من جبننا، فتثير إحساس الآخر من العدم بأننا خائفون ومذعورون من قادم لا نعرفه، فتدفعه ليهاجمنا، ويقتل سعادتنا، بل ويسجننا في داخله أسرى أحاسيس ليست صحيحة.

صمت الجميع متعجبين من «شلبي» الحالم بجنيته، المحب لها، الذي نسي أنه بيننا تاركا دموعه تنزف على حكاية شاهدها بمنامه.

سألت نفسي:

- ماذا لو شاهدها حقيقة؟

ربما يغير رأيه، فما هو مخفي يكون في أوقات كثيرة رائعا وجميلا، وكلما انكشف منه جزء ضاع جماله. وصفُ «شلبي» لها جعلنا نرى قلبه الطيب المختفي خلف جسده الضخم المخيف الذي يجعلنا في كثير من الأمور لا نعارضه حتى لا نتعرض للعقاب. كل ذلك جعلنا نشعر

بذنب الحكم على الأجساد دون القلوب، وعلى جانب دون الجانب الآخر.
رغم أن الجميع شعر بقشعريرة فإنني لم أخف مما قالوه عن تلك المرأة؛ لأن «وليد» قال لي:

- العالم الآخر ضعيف وهش، يمكن أن نسيطر عليه بقليل من آيات القرآن إذا كنا على يقين من ذلك حينما نودع الخوف منه ونتوضأ بقليل من الماء لنرعبه ونجعله يشعر بالضآلة إذا أراد منا اقترابا.

توقفوا عن الحكايات، عادوا لقريتهم، تلك الدائرة حول نفسها ببيوتها القديمة وشوارعها المتقاربة، مخافة السارقين الذين ينهبون الحلم من عيون الصغار.. شوارعهم الحاملة وجع أناس قهروا الفقر بصبرهم، وعنادهم الصلد الذي لا يلين على الرغم من انحناء الظهر، مع أملهم بأن الغد يحمل تباشير صباح مختلف.. ظلت قريته ببيوتها الوهنة وامرأة الجن تسيطر على هاجسه، لم يستطع الابتعاد عنهما حتى وهو يخلو بنفسه، أو عندما يجلس ليشاهد نفسه في عيون الآخرين. ذلك كله جعله يترك كل شيء و يعاود النظر من نافذته .

نظر «سالم» بألم بعد أن هاجمه شلال من الذكريات وهو أمام نافذته التي فتحها ليرى العالم أمامه، وينعتق من عزلته الموجعة ولو قليلا، فإذا بها تحاصره بكل ما مضى، ليدرك أن النوافذ المفتوحة لا تجلب النور دائما، بل يمكن أن تشعرنا بشدة الظلام من حولنا. مشككا في مقولة: دع النوافذ من حولك تتفتح. ضحك مرددا:

- إلا إذا راقبنا ما ينفذ منها.

كانت النوافذ تشكل لديه هاجسا والظلام يلتف حوله. قضم شفتيه بعد أن سيطر عليه الإحساس بعدم اللقاء، والخوف من القادم المجهول المربوط ببشارة امرأة النرد التي صحبته معظم عمره. تحرك بعيدا عن

النافذة حاملا الكثير من ألمه النابع من مدينة لا تكنفه، وتلفظه كل مرة خارج حدودها لطيما، ليعيش بين غربتين، غربة جسد أصبح يشعر بثقل البعاد، وغربة نفس لا تقوى على تحمل أي هزة حتى لو كانت بسيطة لا يشعر بها الآخرون، الآن هو كالبيت القديم، هزة واحدة تدمره وتحيله لبقايا أطلال. تحرك ليقف أمام صورة «خالد» صاحبه وهو يتأبطه، مسح عبرته على صاحب الجنية وأعز من أحب في الحياة، على يديه عرف معنى الفراق، وتذوق في فراقه حسرات الخسارة شاعرا بالوجع على الرغم من مرور سنوات طويلة، وأدرك أن الإبحار للضفة الأخرى لا بد له من تضحيات، وأدرك أن «خالد» الذي ضحى بجسده النحيل تحت إطارات الإهمال يحمل مصباحا يضيء به الدروب المعتمة، حتى إنه ينير طرقه المظلمة التي لا يجد فيها إلا كفه الناعمة الرقيقة ممدودة تنتشله من هذا الظلام. تمنى كثيرًا أن يكون معه، ويشعل طريق الباحثين عن إنسانيتهم. تغيرت نظرته للموت عندما كبر، أصبح مرهونا في تحقيق أمنيته التي تتسع بصدره، متمنيا اليوم الذي يعبر فيه ومعه وطنه إلى الضفة الأخرى. حلم بالعبور دون الخوف من أن يكون أول ضحاياه، بل تمنى لو أصبح أول من يضحَّى به في سبيل أن يحيا الآخرون. تلاحقت أفكاره كالذر الخارج من بين الشقوق مسيطرة على عقله وقلبه، ليشعر بالبرد القارس يتخلل جسده، ويتجمع واصلا لأصابعه المهروءة. نفخ في يده مستعيدا من أنفاسه دفئا، حاول أن يقاوم به برد الحياة من حوله كما كان يفعل صغيرا بين بساتين قريته. ذهب لمطبخه، صنع كوبا من الشاي، عاد للجلوس بجوار النافذة، شاهد شارعه والنوافذ المطلة عليه مرتشفا الشاي بصوت متناغم، ليقطع وحدته المؤلمة والمرهقة في آن واحد. هناك جلسوا معا بجوار الساقية، كان معهم «جرجس» وكل

الأصدقاء للاحتفال بشم النسيم، نظرت له وهي تعد كوب الشاي، كانت نظرات «ماريا» حزينة ومنكسرة وخائفة من الغد، متوجسة أن القادم سيحمل أمرا غير سار على الرغم من أن أباهم أوصاها أن تمسح دمعتها بابتسامة، ابتسمت، لكن كانت موشحة بالألم. انتهى من كوب الشاي بسرعة تاركا المكان والعزلة، وذكريات «ماريا» التي دائما ما ذكرته بأن من نحبهم هم الذين نشعر بهم، ويشعرون بنا أم من يدعون محبتنا ولا يعرفون لماذا نبكي.. هم كاذبون..

نظر للنافذة المقابلة التي طاردته زمنا عندما كان يطارد أحزانه. توقف قليلا عندما أشارت له، وكتبت على كرتون كبير رقم هاتفها، تعجب من جرأة الفتاة، بعد قليل وجد نفسه مندفعا للحديث معها، لم يعرف ماذا يقول وهو الريفي البسيط الذي تنتزع منه الكلمات، كل ما يعرفه أن «ماريا» كانت تصمت وهو أيضا حينها كان يصمت. اتفق أن يقابلها، وهما عائدان عرف أن اللقاء القادم سينظر كلاهما لبعض كغريبين ضلا الطريق. لم يستطع أن يهرب من «ماريا»، فقد علَّمته أن يغمض عينيه ويسلمها يده مودعا ظله ليسكن في قلبها.

الآن، أغلق النافذة وقرر أن يعبر أشكاله المتعددة بالمرآة، أراد أن يبتعد عن كل شيء مستشرفا المستقبل بلا أحكام مسبقة وبلا قيود سابقة من ماضيه، حتى يستطيع أن يعبر عتبة الزمن دون أن يصطدم ولو مرة واحدة بتاريخه المسجل على كل قسماته، مؤمنا بأن ملامحنا تشكل تاريخنا دون أن ندري، وتنطق بما يعترينا لمن يشعرون بألمنا، وليس من يتشدقون بذلك وهم لا يعرفون كم الحمم التي تنتظر الخروج من أجوافنا.

أخذ يعد سلمه متمتما بالاستغفار الذي يحبه ولا يفارق لسانه كلما هبط سلما أو صعد آخر: «لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين»،

دعاء لازمه منذ انتقل إلى المدينة في الثامنة عشرة من عمره، أوصته أمه به كي ينتشله من كل أوجاعه، حفظه عن ظهر قلب، وظلل يردده عمره كله كلما ضاقت به الدنيا، ليخرج منتصرا على الضيق باتساع أفق ورضا بالقدر، يومها ودَّع فيه قريته التي لم تكن إلا كخزين القمح في الحجرة المغلقة بإحكام، دخل عالم المدينة وحده من غير الحاج «محمد أبو علي»، ومن غير رفاق الجنية الذين فرقتهم الأيام متحديا الصعاب من أجل تحقيق حلمه وحلم أبيه. حمل حقيبته، ومجموعة من الذكريات، ودعاء أمه التي ظلت تحرسه من غبن الحياة مهما امتدت أظفارها، ونبشت بلحمه. لم تكن «ماريا» بعيدة عنه، ظلت ترابط بجواره وتهدهد خوفه كلما اشتد عليه. في يومه الأول بالمدينة انتابه الخوف من تلك المدن التي يموت فيها الناس دون أن يشعر بهم، خاف أن يودع العالم وحده، ويترك الدنيا وما فيها. هذا الشعور المستبد بدنو الأجل وقرب الممات جعله يصك وجهه كثيرًا في وجه الفرح. مع آخر درجة من درجات سلمه استوقفه جميل سعيد، بواب العمارة ابن الثلاثين، تربيعة بكرش صغير، ذات مرة سأله عن سر كرشه..

ضحك وقال:

- كرش عز.

ثم قهقه بصوت مرتفع قائلا:

- العز.

صمت ثم رفع رأسه مكملا:

- أقصد يا أستاذ.. الرضا..

قالها رافعا حاجبيه ليفصِّل أكثر:

- بالبلدي، أنك تكون مرتاح الضمير، عندها سيشبعك الهواء الذي

تتنفسه. لم تكن ملامحه مريحة؛ فكان لجميل سعيد وجه منبطح وعينان ضيقتان وأنف مدبب كرصيف هدل من الجانبين مع شعر متناثر من تحت طاقيته المعنونة ببقع زيت؛ فهي إرثه من أبيه الذي غادر الدنيا ولم يترك لهم إلا ملابسه الرثة وبيتا من الطين مفتح السقف تطل منه السماء دون ساتر وتقبع الشمس دون وجود ما يقلل حرارتها، لا توجد به إلا غرفتان مغلقتان، واحدة ذات فرن كبير؛ فهي للشتاء، وأخرى تتحول لخزانة لأغراضهم البسيطة، مات أبوه وترك «جميل» قريته وأخذ طاقية أبيه وأقسم أن يحتفظ بعرقه فيها.. كانت عين «جميل» صغيرة بنظرات حادة ككلماته إذا ما غضب من أمر لا قيمة له، ليقف عائدا بمؤخرته للوراء ومقدما صدره للأمام مع انتفاخ أوداجه ليتحول وجهه لأسود غامق ثم سرعان ما يعبر حاجز الصراخ متحدثا كطفل مهذب حي. تناقض غريب من «جميل»، ومحبب عند «سالم» من معرفته لأشخاص يتناقضون مع الواقع بانفعال مصطنع أسبابه ونتائجه معروفة قبل أن يبدأ. الغريب أنه أمر محبب لقلب «سالم»؛ فقد تعلم منها أن مشاجرة غبية مع جميل سعيد ترسم على قلبه البسمة وتخرجه من كبت الوقت التعس الذي ينفرد به؛ فبعض تلك المشاجرات يحتاجها الإنسان لدغدغة الغباوة في القلب، وتفرط عناقيد الأسى منه. لم يمهله «جميل»، وبصوته المرتفع محققا أمنيته في مشاجرة مع «سالم» حتى لا يظن في نفسه أن «جميل» ينسى دوره أبدا في العمارة، قائلا وبنبرة تحمل سخرية وغضب في آن واحد:

- مساء الخير يا سيدي..

كان كل ساكني العمارة متقبلين «جميل» بغبائه وبتقمصه دور مالك العمارة، وأنه المتفضل على كل الساكنين بها، وأن الجميع يجب أن ينتبهوا

لذلك وإلا تعرضوا للطرد..

بابتسامة رُسمت على قسمات «سالم»، ونحت ذكرياته جانبا وبعيدا عن جميل سعيد الذي استقبله بهذا الموشح:

- مساء النور يا جميل الجمال!!

ضغط «جميل» على كلمة الأسانسير مبدلا كل حروفها:

- شكرا.. فلوس «الأسانسير»..

بدأ «سالم» ممارسة اللعبة بقوله:

- لن أدفع.

لم يكن عدم دفعه إلا لأنه يسكن الدور الأول علوي، الذي اشتراه ولم يكن أمامه خيار آخر، بعد أن أصبح يمتلك المال لم يستطع أن يترك شروخه للآخرين؛ ففي كل ركن بها حكاية، ووجع ذكرى لا يستطيع أن يتركها..

أصر «جميل» على سؤاله:

- لماذا يا أستاذ؟

- لن أدفع.

هكذا قالها «سالم»..

برهة من الصمت أعادت لـ«جميل» ذاكرته التي تخونه في كل مرة عن عمد؛ فأحيانا نلجأ للتناسي، حتى يخرجنا مما نحن فيه، ناطقا كلماته بسرعة:

- سامحني يا أستاذ..

- لن أسامحك.

قالها وهو يضحك رابتا على كتف جميل سعيد بحنان..

رد «جميل» وهو يحرك رأسه:

- والله أنا لا أعرف ماذا أعمل.. حسبنا الله ونعم والوكيل، كل شيء تغير.. كل شيء ذاهب لهناك، عارف يا أستاذ، على الرغم من أن حياتنا بالنجع كانت قاسية لقسوة الجبل المحيط بنا فإننا كنا نشعر بأمان.. الأمان. هل تعرف يا أستاذ، أنام وعيناي مفتوحتان، لا أعرف ماذا حدث لي.. لكن عندي إحساسا أن قدرنا آتٍ لا يرحم، بل سيكون قاسيا وغير منصف لي. على كل حال في انتظاره.

شعر «سالم» أن «جميل» ليس هو الذي يتذاكى ككل مرة، لكنه واحد مختلف تسكنه آهات كثيرة.. هذه المرة عرف أن الوطن بأكمله يسكنه وجع، شاهد وجوها واجمة، وعيونا تتأرجح فيها الدمعة.. رأى كل شيء غائبا خلف صورة واحدة لرجل متصابٍ.

نظر لـ«جميل» واضعا في يده مالا دون أن يضحك.

«جميل»:

- ربنا يكرمك، ويهدي بالك، ويفرحك بما تحب.

رفع يده للسماء:

- آمين..

ترك جميل سعيد متيقنا أنه مختلف كوطنه تماما. خرج من عتبة العمارة مستدعيا سنوات مرت. مع ابتسامة مغتصبة من قلبه، وسؤال يتردد في داخله، وربما في داخل كل الناس، وآخرهم جميل سعيد.. كان السؤال هو: ما سر الحزن القابع في قلوب كل من يقابلهم منذ وطأت قدمه أرض المحروسة هذه المرة؟ ولماذا هذه المرة بالذات؟ لم يجد إجابة غير مصمصة للشفاه يلجأ لها كلما احتار في أمره، ولم يجد غيرها بديلا. نظر للسماء والسحب الراكضة خلف هواجسه، وقلقه الذي يطارده من فكرة المراقبة، والمصاحبة له منذ كان صغيرا يلعب في شوارع قريته

بالكرة، هذا الهاجس زرعه صاحب الكرش الممتد ما يقرب من مسطرة هندسية، بملابسه غير المنسجمة، والراسمة الخيبة في داخله من مهنة لم يعرف مقدارها فأصابته بلعنتها، هكذا المهن تنقلب على أصحابها إذا جهلوا قيمتها وحقيقتها. هذا الكرش المصاب بلعنة المصلحة غرس المراقبة في نفوس الصغار المتعطشين لمن يضمهم في حنان، وليس من يبذر فيهم هواجس الخوف والقلق ممن حولهم. اختار من الطلاب من يصلح للجاسوسية، ومن لديهم قدرة على مراقبة الآخرين، علَّمهم أنهم يحمون الوطن، بعد زمن صدق حدسه، أصبح جواسيسه من رجال الحكومة، ومارسوا عمل الجاسوسية على أكمل وجه منقذين فكرة في عقل غبي متصابٍ. تمنى لو انتفض في بطن الكرش الذي لاك حلمه مع حبات اللب، وضربه ضربا مبرحا، حتى يعرف جريمته التي خلَّفها في نفوس صغار يحتاجون من يعلمهم معنى الحرية.. حكى لـ«شلبي» عن أستاذه وعن الجواسيس. غضب «شلبي» وأصر أن يضربه.. «شلبي» لم يكن معنا بالدراسة، كنا مختلفين على الرغم من عمرنا هو يذهب صباحا ونحن نذهب آخر النهار والعكس. تحمس «شلبي» لمعاقبة هذا الكرش لحبه الشديد لـ«سالم»؛ فهناك من البشر من يتوحدون مع الآخرين ويتألمون لألمهم ويفرحون لفرحهم وهم راضون بالتضحية.

ابتسم وأكمل المسير في شارعه نافضا ذكرى كرش تركت علقما في فمه. التفت حوله، كانت أحلامه الأولى تمتد مع هذا الشارع المظلم غير المبتسم كعادة قاطنيه، كم قطعه عمرا ذهابا وإيابا قبل رحيله، حفظ معالمه مترا مترا، يشم رائحة شجره ويميزها عن غيرها، ويعرف أنهما متلازمان، ولا يمكن أن يفترقا مهما طال البعاد، تعلم من شارعه أن المعاني الحقيقية للحياة تكمن في الشوارع، فهي تختلف بالنهار عن

الليل، لها شكلها الذي يكسو وجهها، منها ما يتجمل نهارا، وهذه ليست عندنا؛ لأن النهار يكشف أخطاءنا الموجودة حتى بشوارعنا، وشوارع تتجمل ليلا؛ لأن عيوبها تختفي خلف الظلام، فهي تشبه بعض النساء يمكن أن تراها جميلة من بعيد، مخيفة كلما اقتربت وظهرت قسماتها. عبر شوارع كثيرة في بلاد كثيرة، وأدرك اختلافها في الأوقات المختلفة وعرف أن أخلاق الناس تنعكس على الشوارع، وأوراق الشجر؛ لذلك ظلت الشوارع محفورة في داخله..

نظر حوله مرة أخرى، لم يجد إلا الأبنية الشاهقة يلفها الصمت، والمقاهي الخالية إلا من المعاندين قهر الفقر المؤلم، وهم يلعبون الشطرنج ويرتشفون الشاي، مصبرين أنفسهم مع كل نقلة لقطع تلك اللعبة.. هذه اللعبة التي توجس منها منذ شاهدها أول مرة وهو يمشي أمام بيت كبيوت الأغنياء في قريتهم، أو كان بالفعل من بيوتهم، ثم جارت عليه الدنيا عندما جار عليه أصحابه، فبيوتنا انعكاس لمشاعرنا تفرح بنا، وتحزن لنا. مر من أمام هذا البيت، رأى فتاة وأخاها يلعبان تحت شجرة من العنب تتدلى قطوفها، كثيرًا ما جذبته حبات عنبها، فسال لعابه دون أن تمتد يده، كان يشبع جوعه بالأمنيات ولو للحظات كبقية الفقراء يشبعون حاجاتهم بالأحلام، ثم ينامون تحت عباءة الأمنيات منتظرين الصباح الذي سيجدون فيه طعاما. وقف ينظر للفتاة وهي ترفع سبابتها متحدثة لأخيها بصوت المنتصر المالك قراره في معركة شرسة:

- كش ملك.. مات!!

لم يفهم ما معنى كش، ولم يدرك من الذي مات، لكنه عرف أنه موت مختلف عن الجالب الألم والصراخ والفراق. وقف ينظر لها وهي تقفز رافعة يدها مشيرة بعلامات الانتصار، مع جسد غض، ووجه جميل،

وشعر منساب كنهر من ظلام، وعينين سابحتين في عالم لم يكن له، ظل أمامها مستغرقا في أحلامه الجائعة ما بين العنبة المتدلية قطوفها وجمال الفتاة المختلفة عن بنات قريته، كانت ملابسها جميلة، وابتساماتها تغطي ملامحها، كانت تشبه «ماريا» بعض الشيء، لكن «ماريا» أجمل منها.

نظرت له، ثم ابتسمت نصف ابتسامة تاركة أخاها يبحث عن خيبته، مصبرا نفسه بقول كل مهزوم:

- حظ المبتدئ..

بهزة رأس مستفسرة عن سر وقوفه، رد عليها مبتسما:

- ظننت أن أحدا مات.

كانت ضحكتها تملأ المكان ثم قالت:

- لا، لم يمت أحد عندنا..

ابتسم أيضا بعد أن منحته ثقة الحديث معها، فكثيرا ما ظن أن الأغنياء متكبرون ومتغطرسون وقائلا:

- سمعت «كش ملك».. «مات»!!

رفعت يدها على رأسه وهي تضحك:

- لعبة، اسمها يا حبيبي «شطرنج».

بصوت مندهش منها:

- حبيبك؟! شطرنج؟!

ابتسمت وقالت له:

- تعالَ معي.. هذا هو الشطرنج..

قال ضاحكا:

- آه، مثل السيجا.

ردت باندهاش أكثر منه سائلة:

- سيجا؟

بابتسامته المعهودة على قسماته أجابها:

- سيجا. لعبة نلعبها في التراب بقطع من الحجارة مع «شلبي الأفطس».

غارقة في الضحك متلعثمة بقولها:

- «شلبي الأفطس»؟!

ضحك قائلا:

- «شلبي» حريف، يهزم الجميع، أحيانا أهزمه، كلما استرحنا من عمل الحقل جلسنا نلعب في التراب متناسين تعبنا.

سألته مندهشة من لعبهم في التراب ومن خوفها من الجراثيم التي تمرض.

كانت كلمة جراثيم أكثر استغرابا له، لكنه نظر في عينيها قائلا:

- لا ندري لماذا نختار التراب.

أكمل لها وهو مندهش لسؤالها وعن خوفها من الجراثيم وحياتهم كلها بين التراب والطين ليسأل:

- أتعرفين أن حياتنا كلها في التراب والماء؟ عندما تخرج حبات عرقنا تكون معطرة بذرات التراب! كأن دماءنا تراب.

سألته وهي متحفزة لمعرفة لعبة جديدة:

- وكيف تلعبونها؟

بصوت رخيم متقمصا دور المعلم:

- القطع في اللعبة متساوية في الرتب، لا فرق بين كلب وأخيه، كلهم في حكم العدم متساوون. من يأكل أكثر يفز بالمباراة..

باندهاش واستغراب أكثر سألته:

- ماذا تسميها؟
ضحك مجيبا:
- نسميها كلابا، ربما لأنها تحمل الوفاء، وتظل في حماية إخوانها حتى تغادر الحياة، وتكون مختلفة اللون، غالبا ما تكون بين الأحمر والأسود، نلعبها على الجسور، نعانق حلمنا في التراب، ونتبارى فيه بـ«السيجا».
بابتسامة طلبت أن يشرح لها..
أخذ يشرح اللعبة، واصفا إياها بالسهلة وغير المعقدة.. هي وضع كلب المنافس بين كلبين من كلابي، هنا يموت، ومن الجائز أن يضرب أكثر من كلب في وقت واحد، ودائما من ينزل بكلابه أولا هو من يتسيد الدور إذا كان ماهرا.. شعر بالسعادة وهو يشرح لها لعبته ولعبة الكبار والصغار من أبناء قريته حتى صمت ونظر لها.
ابتسمت وهي تقول:
- جميلة لعبتكم..
كان أخوها ينظر لهذا الفلاح الصغير بانبهار، ولذكائه الخارق الذي يتحدى جبروت جميلة تهزم من يقابلها. الغريب أنه لم يتدخل بشرحه، بل ظل يستمع له وهو يشرح لعبة «السيجا». عندما انتهى «سالم» نظر له وابتسم بغرابة سائلا:
- هل أنت صغير؟
ابتسم «سالم» وهز رأسه نافيا، ثم سألهما:
- كيف تلعبان لعبتكما هذه؟
كانت أكثر حرصا على تعليمه إياها:
- لعبتنا اسمها الشطرنج، مثلها مثل لعبتك تماما.. لكن القطع غير

متساوية، ويمكن أن يظلوا أحياء حتى آخر الدور؛ فهم ليسوا في حكم النقل متساوين، لكنهم في حكم العدم متساوون، هناك من تخسره فلا تبكي عليه، وهناك من تخسره فتختل خطتك وربما يضيع الدور منك.

ماذا تقول إذا أكلت كلبا من اللعبة؟

- أقول: أكلته!!

قالها ثم ضحك وهو يضرب كفا بكف.

- نحن أيضا نقول مثلك، مع الملك فقط لا بد أن تختلف الكلمة، نقول مات؛ لأنه لا يصح للملوك في لعبتنا أن تغلغل بأحلامنا الثكلى، وأن ننتقم منهم بغية التشفي ممن يحكموننا أو ممن لا نحبهم في حياتنا ولهم القرار.

ابتسم وهو واعٍ لكلماتها جيدًا، التي عبَّرت عمَّا يريد، نظر للعبتها ناسيا ما بينهما من مسافات لا يعرف مَن صنعها غير حكمة الله في أرضه، كانت عيناه تتركانه وتذهبان لعناقيد العنب المتدلية.

هزت رأسها وهي تقول:

- انظر، هذه رقعة تتكون من لونين مختلفين، وفي كل اتجاه يملك اللاعب وزيرا وفيلين وحصانين وطابيتين وثمانية عساكر، كل هؤلاء لحماية الملك، فإن مات الملك انتهى الدور..

هز رأسه مستفسرا عن الملك.

أخذت تشرح له واحدة بعد الأخرى.. بدأت بالملك قائلة:

- يمشي واثق الخطى، خطوة واحدة فقط؛ لأن مكانته لا تستدعي أن يهرول، هناك من يفعلون بدلا منه، ومن يموتون بدلا منه أيضا.. الآن جاء الدور على الوزير، هو رأس الحاشية، القائد الذي ينهي المعركة لصالحه إذا استيقظ، أما إذا غفل فقد ينهار الدور كله، لكن يمكن أن يتكاتف الجميع

ويصدوا غزوات الآخرين.

أكملت الحديث عن كل قطعة ودورها حتى استوقفتها العساكر لتقول:

- مساكين ورب الكعبة، حركتهم قليلة، يتقدمون خطوة أو خطوتين في البداية، بعد ذلك يتقدمون خطوة واحدة، ويأكلون فريستهم بميل منحرف في خطوة واحدة فقط، لا يتراجعون، ويتعرضون للموت؛ ليظل الجميع أحياء. الغريب أنهم يتحركون كالملك لكنهم ليسوا إلا عبيدا.

أفهمت لعبتنا؟

- نعم، فهمت أمرا واحدا..

- ما هو؟

- فهمت أن الجميع يموتون كي يعيش الملك، خاصة الضعفاء من قطعك..

- أهذا ما فهمته؟

سألته مندهشة ومستغربة من إجابته. وقف أخوها ونظر لها ثم ضحك وترك المكان لهذا الصغير ضاربا كفا بكف.

بثبات وابتسامة:

- نعم.

- ما اسمك؟

سألته وهي تهز رأسها..

- «سالم».. وأنتِ؟

- «ياسمين»..

- جميل اسمك..

- يا سلام!!

بصوت متزن:

- بجد..

ابتسمت سائلة:

- تغازل؟

رد عليها:

- لا أغازل، لكنها حقيقة.

بانفعال بعض الشيء منها:

- ما زلت صغيرا!!

بشعور من استفز:

- صغير!! متى أكبر؟

كانت إجابتها أكثر حدة:

- عندما تكبر!

صوته ارتفع قليلا بعد أن ابتسم ساخرا، قائلا:

- كيف نقيس العمر برأيك؟ أترينه بعدد السنوات؟

لم تمهل نفسها للتفكير:

- نعم بعدد السنوات.

بإجابة أسرع مما تخيلت قال لها:

- حسابك خطأ.

عادت لابتسامتها سائلة:

- كيف تقيسه أنت؟

- ليس بالعمر، لكن بما نقدمه في الحياة، علَّمني أبي أن الرجل بتصرفاته، وليس بسنه، وبما يقدمه من خير في هذه الحياة.

- لكنك صغير على هذا الحساب.

- لستُ صغيرا..

- ما زلتَ صغيرا..

- سأقول لكِ أمرا كي تعرفيه عن الفلاحين الصغار من أمثالي..

- كل الآذان مصغية.

ثم أطلقت ضحكتها..

- أتعرفين.. دمك خفيف؟

قالها وهو ينظر في عينيها.

- يا رجل!!

أجابته وهي تمط كلمة «رجل».

- تسخرين؟ سلام.

كان منفعلا لسخريتها الشديدة.

- تعالَ، آسفة جدا.

شعرت أنها أمام رجل يجب أن تستمع له.

وقف مستديرا لها ومتحدثا بصوت أكثر ترخيما للخروج من عمره الواضح على قسماته:

- علمتنا الأرض ونحن نحرثها بمعولنا ونرويها بعرقنا أن ما نقدمه من عمل جاد وتحمُّلنا التبعات يجعلنا في نظر الآخرين رجالا، هناك في الأرض حيث الصمت والصبر تحت وطأة الشمس وتحت قر الشتاء تعلمنا وتعلمنا حتى اشتدت أصلابنا وفتلت عضلاتنا.

- أين تلك العضلات؟

كان صوتها أكثر مرحا من جديته بعد أن أدخل في قلبها الإعجاب لصغير يسير في الشارع، أكملت وهي تحاصره بنظراتها:

- معلمة رائعة الأرض!

قالت وهي تضع يدها على شفتيها كاتمة الضحك..

- مرة أخرى؟

كان سؤاله حادا مستنكرا سخريتها.

- لا طبعا، أكمل.. ماذا علمتكم أيضا؟

ضحكت مرة أخرى ليستشيط غضبا.

كانت حدة نظراته عاكسة لكلماته، ليعلو صوته:

- علمتنا أن نكون كبارا.

لم ينتظر منها الرد، مشى تاركا الدهشة تغطي قسماتها مصطحبا لذة عطرها الذي فاح من أول مغازلة لجميلة، فسكنته دون أن يدري على الرغم من عمرها المتقدم عليه بسنوات قليلة، فعرف أن الجمال الحقيقي هو الذي يخلف شيئا في النفس، لا يزول بالسنوات مهما طالت، بل يظل محلقا في الذات كلما هامت لرؤيته، فتقفز عابرة السنوات، ومتجسدة ببسمتها، واستغرابها من فتى يتكلم كالرجال.

ضحكت بصوت مرتفع قائلة:

- حقا، أنت كبير..

غرست في قلبه زهرة إعجاب ليفوح عطرها كلما اشتاق للماضي، لكنها لم تستطع أن تزحزح «ماريا» من قلبه ولم تأخذ ركنا منه، فقد كان قلبه محجوزة أركانه كلها لـ«ماريا»، حبيبة العمر، كما يحب أن ينعتها. مع خطواته المتجهة ناحية البيت، ومع معرفته بالشطرنج من تلك الجميلة، عرف أن التضحية واجبة على الجميع من أجل رجل واحد هو الملك، وأنه لا قيمة لنا في هذه الحياة، فما نحن إلا أدوات على رقعتها، وأكثرنا تضحية هم البسطاء؛ فالعسكري يتقدم لا يتراجع، عليه أن يَقتل أو يُقتل، لا يصح له العودة، هو دائما مقتول، هكذا قوانين اللعبة تستبد بالضعفاء؛ لذلك

عرف لماذا كره «غاندي» الشطرنج، وهو أيضا كره تلك اللعبة المستبدة بالمساكين الذين يعيشون دائما تحت التراب، ويموتون تحت الأقدام، والغريب أنهم مستعدون لذلك، ويدافعون عنه بكل قوة، لتصيبه دهشة لا تقل عن دهشته من الهواجس المحيطة. كانت كل الذكريات تأخذه إلى قريته التي تعلم منها كيف يقاوم الحزن عابرا عتباته واحدة تلو الأخرى حتى يرى الدنيا كما يحب وقتما يشاء. لف عنقه بغطاء معبق برائحة المطر عابرا الشوارع والذكريات القديمة هاربا للطبيعة المانحة معنى الحياة، ليشم أصله في ذرات التراب التي يحبها، ويشعر أنها تخصب قلبه بالحب..

(2)

منذ زمن، أدرك أن الطبيعة وحدها هي الصديق الذي لا يخون، عندما كان يجلس بجوار أبيه متوحدا يتأمل ويتدبر من أجل معرفة العالم المحيط والمفروش بسجادة خضراء امتدت، ليصلي الكون عليها في هدوء. بجواره تعلم أول دروس التأمل والتوحد، فتحول لجزء من الطبيعة؛ لأنها تسمعنا وتغضب لغضبنا، وتتألم لألمنا، وتدخل على قلوبنا شعورا جريئا يدفعنا لحب الحياة والتمسك بها..

كبر «سالم»، وقرأ لامارتين المحب للطبيعة، والعارف سرها، والذي صارت بينه وبينها علاقة أزلية لا تنفصل.. مرددا قوله:

- الطبيعة هنا تناديك وتغمرك بعطفها.. ألقِ بنفسك في صدرها؛ فهي أبدا فاتحة صدرها لك..

فعل بوصيته، اتجه فاتحا صدره، ومختارا ولدا من أبنائها، ذلك البار المولود في ليلة سمراء، النيل الممتد يحاكي الحياة. أراد أن يفرغ له أسراره، لإيمانه بأنه ليس من الحكمة أن يحكي للناس، فهم لا يتحملون أسرارهم، فكيف يتحملون أسرار غيرهم؟! وحدها الطبيعة تحمل الأسرار، وتخفيها عن الآخرين. ذلك كله لأننا نرتكب الخطأ ونضعه في بؤرة النسيان، فإذا ما اطمأنت قلوبنا، وهدأت نفوسنا، قفزت عابرة حواجز الزمن، متجسدة أمامنا بشحمها ولحمها، نابشة سعادتنا، ومتحولة لوحش يلتهم فريسته. في طريقه للنهر ودع «جرجس»، ثم ودع «ماريا»، لم يتحدث معها. كانت البسمة تعلو وجه «أم جرجس»، دائما ما حكت عن أخيها «إبراهيم» الذي ترك مصر منذ عشرين عاما وأصبح لديه متجر كبير وبيت بحديقة، تمنت أن يكون «جرجس» صغيرها كأخيها في كل شيء؛

فلقد سار ليلا عابرا البحر ولم ينسَ أهله وأحبابه، أرسل لهم الأموال، وعندما أصبح قادرا على استضافتهم لم يتردد، ألح عليها كي تسافر له، بعد أن مات «أبو جرجس». لم يترك من حطام الدنيا غير بطولاته التي يتذكرها الجميع ويفخرون بها. ودع «جرجس» و«ماريا» وحلمه وحبه؛ ليخسر أول تجربة نبتت في قلبه لأميرة ذات عينين تبتسمان كلما رأته، ليردد:

- وجود امرأة تستوعبك بابتسامة كلما سألتها عن الحب لهي الحب نفسه.

كانت خطواته بطيئة في شارع يألفه، وقف أمام مقهى ارتاده زمنا، رمى حبات النرد في وجه الحظ التعس والمخيف وهو جالس على مقاعده، وفيه قاوم شعور الجبن من نظرات الآخرين التي طاردته دون أن يشعر، ذلك الشاهد على توحده مع ذاته، إذا ما أراد أن ينعزل عن الآخرين في فترة شبابه المتوشمة بأحلام لا حدود لها. كان خاليا من المتبادلين النرد بين كفيهما في هذه الأيام، والموزعين أمانيهم وهم يرتشفون ألمهم بفنجان قهوة محوج بحمق الفقر وعنفوانه الذي لا يقوى إلا على الضعفاء من البشر.

بتلك اللحظة رأى المكان مختلفا، أخذ نفسا عميقا متمتما:

- المكان والذكريات صنوان لا يفترقان..

في هذا المكان التقى امرأة منذ عشر سنوات، أو ما يزيد قليلا، علقت بقلبه فترة من الزمن بعد أن تعرف عليها في لقاء شعري، بعد أن انتهى التقت عيناه عينيها، لينسى العالم ويعيش بين قسماتها، لم يسمع أحدا من المعجبين، ظل يطاردها بنظرات معجبة، لتبادله مثلها، شعر أن الدنيا ضحكت له بعد أن وافقت على الخروج معه للعشاء، جلست بالقرب منه،

ولفته بأنفاسها، واحتواه عطرها، ليغيب أمام أنوثتها الطاغية بلا حراك، مع حركة أناملها كانت تضحك كسيمفونية جميلة.. دفعته أن يسألها:

- أتجيدين العزف؟

تمايلت طربا قائلة:

- والرقص أيضا..

لم تصمت.. أكملت بجرأة:

- الرقص على نغمات المغرمين الهائمين من أمثالك.

لم يتصور أنها بهذه الجرأة، ركن رأسه على حافة الكرسي ناظرا للنيل حالما بالرقص معها، ومنفصلا عن الوجود، وداخلا في حالة توحد برقصة تشبه رقصة آنا بانفلوف لتعبث قسماته بقسماتها، دون أن تترك أثرا واضح المعالم مخلفا عشقا بلا أثر.

عاش قصة حب في أحلامه على أنها حقيقة جميلة تسكنه، مخرجا لسانه لواقع مرير فُرض عليه، ولـ«ماريا» التي تركته، وعاشت هناك في بلاد الغرب، على الرغم من اعترافها أنه حبيب العمر، كان موجوعا ومستغربا أننا جميعًا نتلاقى خلف أحلامنا التي تموت منا في لحظة ولادتها فنظل متمسكين بها حتى وهي تحمل رائحة الموت، أقصد رائحة الفراق، فكلاهما له رائحة واحدة وألم واحد.. استغرق في حلمه، ولم يستيقظ إلا بعد أن خرجت تائهة وسط الزحام لاعنة رجلاً يحلم وهو مفتح العينين، يحلم دون أن يتحرك، لتصب غضبها بكلمات تنم عن جرح أصابها من رجل غشيم في الحب قائلة:

- المرأة لا تحتاج من يستأذن في الحب، تحتاج لمن يقتحم مشاعرها، يباغتها. لا تحب الخجل في الرجال، تحتاج من يسرق القبلات، يلامس الوطن في قلبها مراقصة أنامله أوتار الحياة؛ فالحب عندها اندفاع،

كاندفاع النهر نحو المصب. الحب ليس خرسا أو صمتا أبلهَ في وقت يحتاج فيه أن يبلغ مداه. ثمة حقائق في الحب تقول بأن الخرس الدائم بين متحابين يدفعه للسكتة الدماغية التي تسبب وفاته على فراش الحقائق.

تلفَّت، وجد الجميع ينظرون ويبتسمون، على وجل، ترك المكان خجلا من نظراتهم.. وجد نفسه وسط الزحام مزاحما كتف امرأة أخرى، تبعثرت أغراضها، فهوى معها وصمت بجوارها!

ابتسمت دون أن تتكلم.

تأسف مندهشا.

هزت رأسها وعبرت الشارع مخلفة حالة من الدهشة والاستغراب في نفسه من هذه المدينة التي يأكلها الزحام وتأكل أبناءها في ضجيج، وقف أمام النيل عند عوامة في منطقة الزمالك، تلك الراقية في النهار، الماجنة في الليل بعض الشيء، التاركة المحرومين يتراقصون على صفحاتها.. وعلى الرغم من عدم حبه للمجون، تمنى لو كان عاريا في لحظة ما في هذا المكان؛ ليرقص حتى يقع ثملا، وينفصل عن العالم المخيف الذي اختلطت فيه الأشياء بل وأصبحت مرعبة في كثير من الأحيان، ما يجعلك لا تستطيع مقاومة قضم الشفاه.

اليوم، جاء ليحكي له السر الأخير، أخذ نفسا عميقا، وهمَّ بالحديث عن سر لا يعرف ما هو، لكن هناك شيئا ما، شيئا ما سيغير كل شيء، قريبا أو على بعد زمن محدود، بعده سيرحل متأكدا أن النهر ليس هو النهر الذي يعرفه، وأنه لا يمكن أن يغتسل من مائه نفسه مرتين، وأنه سيشكلها على أوراقه يوما حياة مختفية من خلف السطور، لامست يده الماء، فأحس بأنه يجري في عروقه مخصبا قلبه بحبيبات الطمي التي دفعته للاستعداد أن يضحي من أجل أن يعيش الآخرون، ليشتم نسيما

حرا.. هذا سره الذي لم يفهمه، ولم يعرف معناه، لكنه شعر بالراحة بعض الشيء بعد أن تحدث للنهر الذي ضمه برفق، وطهَّره من رجس الظن والخوف والقلق، نظر له وهو مندفع طاويا القرى، ومستجيبا لنداء العدم. ابتسم لأنه أفضى ما يدور في خلده ككل مرة، لكنه علم أن الأمر تغير وسيتغير، ربما في حلمه وحده، أو حلم كل من تنفس الحرية من عبق الزهور التي لا تفتح عينيها إلا إذا رأت الفجر.. مضى معاتبا نفسه لأنه سيترك أسراره وحدها، وسيترك النيل الذي تعلم أن يفيض عندما تبخل السماء، ويضن حرصا عندما تجود السماء، هو أب لكل الذين تربوا على ضفافه. ترك سره الذي لا يعرفه مودعا صفحات النيل المتمايلة والمستقبلة حبات المطر في سعادة، عاد لبيته بعد أن سرى طهره في جسده، وراحة سرت في جسده. كان وقع خطواته هو المسموع في الشارع الذي يلفه السكون مع نسمات باردة ممزوجة بحبات المطر. في هذه الليلة من كل أسبوع تعود أن يسمع ضجيجا، لا يعرف سببا له غير أن سكون الليل يحوِّل الهمس لضجيج. منذ عشرين عاما لا يذكر بشكل صحيح، مشى في شارع صامت كهذا الشارع، مضى وحده خلف مقبرة أبيه، جلس يشاهد العالم وهو يبكي وحيدا حتى دخل الليل، منذ تلك الليلة تعلم البكاء إذا ما هبت ذكريات أبيه، وتعلم أن الصمت أمام القبور يجلب الخوف، وأن البكاء يكسر الحاجز، وأن الدعاء يقرب المسافات، وأن صلتك بالقبر تزيدك صلابة في الحياة، فلا تخشى أحدا مهما كان؛ لأن مصيرك ومصيره القبر على حد سواء، فلماذا الخوف من بعض النفوس الدنيئة المستمتعة بأذى الآخرين؟ مشى في شارعه يحلم بيوم آخر يعيشه في مدينته، لكنها الليلة الأخيرة التي سيقضيها؛ ليرحل بعدها إلى غربته الممتدة منذ سنوات لا يعرف عددها أو تناسى عددها.. رفع قدمه على

درجات سلمه، شم رائحة عطر دائما ما تغيبه عن الحياة، خاصة في هذا اليوم من كل أسبوع منذ عاد لوطنه. هذا العطر الأنثوي يدوِّخ، يأخذك إلى عالم مختلف، ويدفعك نحو تفكير ما يتمناه مع حبيبة تشق الحجب، وتصنع معه حياة يبحث عنها كل عاقل. يعرف العطر ويفهم فيه. كانت «ماريا» قد حكت في رسائلها عن أنواعه؛ فهي تعشق العطر، قالت:

- لكل عطر مناسبة، وأجملها تلك التي تلتقي فيها حبيبا.

انتظر المناسبة التي تصالحه مع الحياة طوال سنوات من عمره، لم تأتِ حتى الآن ككل أحلامه المؤجلة بعد سفر «ماريا» التي غابت هناك وتركت ذكرياتها بجواره. نظر حوله لم يجد أحدا، ولا جميل سعيد الذي توارى من برد الشتاء والتحف بذكريات نجعه، ومعه صغاره الأربعة. فتح باب بيته المظلم تماما من الحياة. أشعل الضوء ثم خرج، نظر للصور المعلقة، ارتمى على أريكته محاولا الابتعاد عن كل الوجوه. مرت الدقائق وهو على أريكته بين اليقظة والحلم، شاعرا بأن ظلام الكون يراقبه. استفاق على صوت ضحكات في ليله الصامت، منتبها للعطر المثير لأحاسيسه. نظر من العين السحرية، تلك التي وُضعت لنتلصص منها خائفين مذعورين من القادم ومن هواجسنا التي تحكمنا. الشعور نفسه يحتلك إذا ما دخلت المحروسة، لكن هنا يختلف الأمر؛ فالتلصص بسبب طرقات الشذا الذي جذبه، ذلك الذي لا يشمه إلا على أوراقه وبين حروفه مع كلمات الحب التي ظل يمارسها كتابة. كانت تتمايل، ركنت بيدها على الحائط مسيطرة عليها ضحكات مكتومة، مرتدية فستانا بنفسجيا يكشف صدرها، من خلال تجاربه عرف أن المرأة العاشقة للحب تعرف سر احتياج الرجل للحنان؛ فتظهر صدرها في خبث؛ ليندفع ناسيا كل شيء، ويبحث عن حب افتقده مع زحمة الحياة. فتح الباب، ومعه حواجز كثيرة تفصله عن

امرأة صنعها، أو صنعتها الظروف خلف الياقة البيضاء المحبوس فيها، فجعلته لا يقترب من أمر إلا بحساب. ترك هواجس الجاسوسية مغادرا خجله، وسألها:

- من أين؟ وإلى أين؟

لم ترد، ولم تكن في حالة تسمح بالرد، نظر مندهشا لعطرها الممزوج بأنوثتها فقد أخذه إلى عالم بحث عنه كثيرًا، واشتاقه أكثر، هوت على صدره، كان في حالة خوف وقلق ممن عانقوا الليل خلف أبوابهم أن يستيقظوا ويروه في موضع لا يحب أن يرى فيه رجلاً يقدس رجولته، دفعت بابه دون أن يسمح لها، كانت ثملة ومنفصلة عن نفسها، وعن كل شيء، باحثة عن مكان تستريح فيه من عناء السكر. لم يتصور أن يرى امرأة في هذا الوقت المتأخر وغائبة عن الوعي، وتفعل أمورا لا تدركها، فهي تطلق الضحكات بشكل لافت للنظر. لم يملك قرارا أمام العطر الذي ملأ أرجاء بيته متشابكا برائحة الدخان مكونا حالة استثنائية يقبل فيها الحسن والسيئ في آن واحد. لم يكن في أشد حالات التفاؤل من أحداث يومه المنذرة بأن أمرا غير مألوف سيحدث، نظر لها وهي تلف قدميها في حركة مدهشة. ارتمت على أول أريكة قابلتها، انفصلت عن العالم، كأنها نبتة في أرض ميتة، لا يوجد بها أنيس، ولا أخت تشكو لها وحدتها. نظر لها وهي ممددة على الأريكة الحاملة أسراره التي مضت، ولم تترك إلا جراحا قاسية من فتاة أحبها، كانت حبه الثاني على أفضل تقدير؛ فحبه الأول لم يستطِع أن يفسره؛ لأنه وُلد في لحظة بريئة جمعتهما وأسكنت هذا الحب بين حنايا قلبه. كانت «ماريا» لها ابتسامة تخلع القلب، كلما دخل بيتهم وجلس مع «جرجس» تمنى لو نظرت له خلسة. لاحظت أمها ذلك فأعلمتها أن من الجرائم الكبرى أن تحبه؛ فهو مسلم وهي مسيحية،

لم يكن يعرف سببا لذلك؛ فهي تؤمن بالله وهو أيضا، تؤمن بـ«عيسى» وهو أيضا، تحب «العذراء» وهو كذلك. ظلت «ماريا» تطارده ويطاردها وهما يضعان حلمهما بجوارهما على قارعة الطريق، كانت تمشي في الاتجاه الآخر عند عودتها من المدرسة، ذات يوم حاول أن يتحدث معها؛ ليعترف لها بأنه أحبها، لم يستطِع، وظل ما بينهما حلما لفترة طويلة.
هاجر «جرجس» و«ماريا» إلى أمريكا وتركا كل شيء، إلا أنها نسيت أن ما ينبت في القلوب الصغيرة لا يمكن أن يذبل مهما مرت السنوات ليراها مع أجراس الكنائس وفي سورة مريم كلما قرأها من القرآن. هاجرت «ماريا» ولم تنسَ ما نبت في قلبها لتدهشه ذات يوم برسالة عنونتها بحبيب العمر قائلة:

- «سالم»، أيها الحبيب، انتقلنا إلى أمريكا بحثا عن الحب، وعن الخير، وعن الثراء، ودَّعنا قريتنا المغروسة فينا، التي من الصعب أن نقتلع أنفسنا منها، فكيف بجذور نبتت في أرض وارتوت من النيل تقبل الارتواء من نبع آخر، وتزهر بمكان آخر؟ أتعرف؟ يقول «جرجس» دائما: مصر حكاية العمر، وكلما كبرنا كبرت فينا وسكنت قلوبنا، باختصار توهمنا أن حياتنا هنا ستنسينا مصر، وستنسينا أرضنا، كان أبي يقول: الأشجار التي لا جذور لها لا يمكن أن تقاوم الريح.. هنا عصفت بنا الأماني، بعثرنا الحلم الزائف لأننا تركنا جذورنا، من قال إن مثلنا يمكن أن ينبت بأي أرض؟ مثلنا تصفر أوراقه إذا ما غادر أرضه، نحن نبات يتغذى على الشمس، لسنا نبات ظل، آه يا «سالم»، ما زالت أجراس كنيستنا خارج القرية ترن في أذني، صوت أذان الفجر ما زال يهدهد حلمي أن أراك بالجوار على الحافة الأخرى، من قال إننا مختلفون؟ نحن شيء واحد، ألم نأكل من أرض واحدة وشربنا من ماء واحد ونبتنا في

ترابها وارتوت جذورنا من النبع نفسه؟ متى وأين حدث الاختلاف يا «سالم»؟ عندما أسمع هؤلاء الذين يشجون محبتنا أغضب وأقسم لكل من حولي إن هذا كذب، إلا أن النداء يضيع أمام طوفان الباطل.

أنهت رسالتها بأنها لن تكون الأخيرة، وأنها على أمل اللقاء في مصر أو في أمريكا، أو في أي مكان تحدده الأقدار. ظل يحلم بـ«ماريا» وباليوم الذي سيلقاها فيه؛ ليرى كل النساء «ماريا»، إلا أن «ماريا» مختلفة بقلبها الذي يمكن أن يتحمل كل شيء في سبيله، فصعب أن تتلاقى الصفات كلها في جسد امرأة واحدة، لكنها تجمعت بقلب وجسد «ماريا». همست مشاعره وتدحرجت دمعة من عينه وهو صامت عاجز، لم يكن يعرف ماذا يفعل.. صمت على الرغم من كرهه الصامتين في الحب، هؤلاء الذين يرتدون الصمت من أجل تمرير حب أخرس ومبتور، هم في نظره أجهل المحبين على الأرض؛ فالحب عنده صرخة في المدى، عنوان في السماء.. كان ضجيج البداية مرتفعا أعاده لحبه الأول ولا يعرف أهي بداية مروعة أم رائعة! فالبدايات لها فارق في حياة الإنسان يشتهيها كلما عز عليه تحقيقها مرة أخرى. الغريب أنه جاءه في زمن لا يسمح لأصحاب الرومانسية أن يكون لهم مكان، لم يعرف أنه زمن سريع في كل شيء، في المشاعر والفكر، ورفض الواقع المرير بينما هو المرتمي خلف قفص الاختلاف..

لم تكن تجربته الأولى مع «ماريا» هي كل تجاربه مع المرأة، هناك تجارب أخرى اعتبرها الأولى أيضا؛ لأنها تدفعه كل مرة نحو اتجاه آخر، وتفتح له نافذة يرى منها العالم. كانت أستاذة التاريخ تشرح كيف تُكتب الأحداث في كتب التاريخ، حاول أن يستفسر عن التناقض الكبير بين الحب والكره، بين الصواب والخطأ عندما يقرأ الحدث مرتين لكاتبين

مختلفين. لم تكن تلك الأفكار التي ينتهجها وليدة أفكاره، بل أفكار «وليد» الذي هاجر وترك مصر، ودائما ما ردد:

- التاريخ كُتب على أيدي أناس بعضهم مرضى بعقولهم، أو بعضهم يقبضون ويزيفون الحقائق، مثلا قبلنا أن تكون الحملة الفرنسية لها نتائج كي يكون الأمر دافعا للإنجليز المحتلين أن يفعلوا ما فعلته الحملة الفرنسية كما يدعون؛ كي تكون في أعينهم حصوة ملح وكي يتركوا مصر ويرحلوا، لكنهم لم يرحلوا ولم يتركوا نتائج.

ضحك وهو يقول:

- هل نظل نضحك على أنفسنا؟ هل نسفِّه من عقول صغارنا؟ هذا أمر غير مقبول.

انتقلت له عدوى غضب «وليد» من الغرب كثيرًا، ودائما ما سب «جرجس» وكل من سافر إلى الغرب باحثا عن مستقبل جديد بأنهم «عبط»، وأنهم لن يجدوا إلا العنت، لكن «وليد» بحث عن الغربة في بداية حياته بدولة عربية، سافر عاما واحدا، ذاق فيه ويلات العنصرية، كره كل شيء، ولم يتحمل، تركها وعاد متخليا عن لقب الوافد. بعد عام هاجر للغرب، هناك في اتجاه «جرجس»، تغير رأيه عنهم بعد أن قارنهم بأبناء جلدته، وقال عنهم:

- إنهم يحبون الجمال في كل شيء، قد يرتكبون الإثم ويشربون الخمر، لكنهم يحترمون الفقراء، ويتقنون أعمالهم، منهم متعصبون، ومنهم حمقى، لكن أكثرهم رائعون، يخافون على بلدهم. أنت لست ابن الوطن، في الوقت نفسه ليس لديهم مانع بأن تكون واحدا منهم، شريطة أن تحب وطنهم؛ لذلك لا تتعجب أن ترى «أوباما»، على سبيل المثال، حاكما لهم، أعرف ستقول ترك دينه، نعم فعلها، لكن قبل أن يكون رئيسا، وأعلم

أنك تقول: لو كان مسلما هل كان سيُنتخب؟ سأقول لك: لا. هذا وضع طبيعي، فعندنا أيضا لن يكون هناك رئيس، على سبيل المثال، مسيحي؛ لأن أغلبيتنا مسلمة، هكذا نقيس الأمور، العقيدة موجودة، تتحرك بجوارنا ولا يمكن التخلي عنها، علينا أن نتعلم ما علمه ديننا العظيم «لكم دينكم ولي دين»، ماذا لو تعلمنا ذلك في حب الوطن، وحافظ كل واحد على قيمه واحترم دينه بالسلوكيات وليس بالكلمات؟ كانت كلماته تذكره بـ«ماريا» تلك التي حلم أن يتوحد معها، هاجرت وتركت أحلامه، لم يكن بيديها، كانت صغيرة لا تعرف ماذا يحدث.. ظل «جرجس» يفعل كما فعل «وليد»، يرسل رسائل يخبره فيها عن حبه وأمنياته باللقاء الذي يجمعهما يوما ما، أيضا نسي العنوان يوما، وضاع وسط زحام الغربة، لكن «ماريا» المسكونة في حواف قلبه لم تنسَ. كانت علاقته بـ«وليد» مختلفة؛ فقد وضع نفسه موضع المعلم الذي يحتويه، عندما علم أنه وعى الدرس نسي القلم الذي يكتب به في درج القلق والغربة، ليصبح ذكرى من ضمن الذكريات بعد أن تزوج، وغاب وراء عجلة العمل، إلا أنه زرع في قلبه الشك من التاريخ، فأصبح يتشكك في هؤلاء السارقين أحلام الشعوب، ويطلقون على أنفسهم زعماء وأيضا تشكك بـ«وليد»؛ لأنه نسي كل أحلامه في قريته، وغاب ولم يستطع المقاومة.

صمت بعد أن حدَّث أستاذته، التي بدورها ابتسمت، ووافقته الأمر، عندها كانت نظرات إعجاب تلاحقه من صاحبة عينين جميلتين، أحبت شجاعته وقدرته على الحوار، ووُلد معها الحب، فالحب يولد ولا ندركه إلا إذا امتدت معاني الفطرة في داخلنا.

«أحلام» كان اسمها، اكتسبت منه صفات كثيرة، فاقت كل ما حولها حتى قدراتها؛ لذلك لم تكن تعرف الحب الميت سلفا، أو المحشور في

الجوانب الخلفية من الذاكرة تستدعيه وقتما نشاء أو في أي لحظة. مرت أعوام وحبهما أخرس لا يستطيع أن يعبر عن كل شيء، جلست مكانها غاضبة، ومعلنة بتصميم نهاية لهذا الحب المبتور؛ فأجمل الحب الذي يتكون في رحم لا تلفظه، بل ذاك الذي يظل حتى يكتمل دون تعجل؛ لأنه يحتاج للرعاية، وليس هذا الذي ينشأ خارج الرحم، ليموت مسببا الضرر حتى لمن تمنوه. لم يعرف حبهم طريق العطاء؛ لذلك ظل صغيرا بينهما، لم يكبر وكان من السهل التخلي عنه؛ فالحب الذي يكبر ويتحول لعشق هو ذلك الذي يرتاد طريقه المحبان بكثير من العطاء دون انتظار الرد من الآخر..

قررت الرحيل عن شاب استسلم ورضي بدوره الهزيل خلف حروفه، فكان بقايا من ورق ممزق، أو ممزوج بدموع غسلت ألمه ومحت إثمه وطهرته من ذنوب غوته عليها ولم تكن أمينة معه. تمنت لو ظلت بعيدة عنه لا تقترب، ليظل كما هو عندما رأته يجادل أستاذته التي وافقته ولم تستطع أن تعارضه واكتفت بابتسامة، لكنه ظل غرًا لا يجيد الحب بكل ما فيه، هو لم يعرف إلا قصة الطفولة التي غُرست فيه، فرضي بالقليل، ولم يعلم أن المرأة تحتاج من يكنفها، لا تحب الضعف والهوان، ولا ترضى بالندية، أو تكون مستأسدة في بيتها، هي كائن يطيع، ويستسلم، حتى في شدة لجاجتها عن المساواة، تبحث عن الأمان والعطف والحب الذي يمنحها القدرة على البقاء والقدرة على مواجهة الحياة، كما قالت «ماري كورلي»: «آية أمرأة تذكر الحرية وعلى شفتيها قبلة حبيبها ؟». رحلت وتركته يلعق ضعفه متمسكا بحبائل فشله، وشاربا نخب خيبته الزائدة، وكغيره من أبناء الوطن رضوا بدورهم الهزيل، لم يتحركوا، كانوا كالأصنام تشاهد الأحداث دون تدخل، مشوا بجوار الحائط، لم

يحلموا بالثورة يوما، أو أن يكسروا جدران الخوف، هربوا من مكان لمكان، ارتضوا الدور الهزيل، دور المشاهد. علم عندها أن الذين يكتبون أحلامهم على صفحات الماء هم الذين يحكمون عليها بالفشل قبل أن تبدأ، فهي غارقة لا محالة مع أول موجة تصادفها. نعم من حقه أن يعبر عن الحب كيفما يشاء؛ لأن الحب قوة تمنح الحياة، كان مؤمنا منذ صغره أنه لا يجب أن يعرف أحد خيبتنا في الحب؛ فالخيبة في الحب عند أبناء القرى كخيبة الفلاح في زرعته. نسي أحلام الأمس ولم ينسَ «ماريا»، عاد للممددة أمامه، أراد أن يشغل نفسه بعيدا عن جمالها، ترك أنامله لفرشته ترسم، مر وقت، ولم يجد معنى لما رسمه غير فراغ وألوان متشابكة لا منطق لها غير أنها تعبر عن إحساس بالذنب. ذنب لا يعرف ما هو، اليوم عاهد النيل ألا يكون هناك أسرار بينهما، لكنه لم يستطع وخالف العهد.

استيقظت من غيبوبتها، نظرت حولها ململمة أذيال ملابسها العارية، ومتحدثة بكلمات غير منضبطة، ومستفسرة عن سر وجودها في هذا المكان.

سكت مندهشا مع ابتسامة..

بعد لحظات خرجت من حالة اللاوعي وبكلمات متعثرة بعض الشيء:

- ماذا حدث؟ لماذا أنا هنا؟

وضعت يدها على رأسها متوجعة.

- لا تقلقي، أنتِ كنتِ متعبة وطرقت الباب.

كانت الابتسامة تعلو قسماته.

- كل ما أعرفه أنني.. لا أعرف ماذا حدث!

التزمت الصمت، بعد وقت قصير قالت:

- أنت؟

- من؟

كان سؤاله كمن لا يصدق أن أحدا يعرفه.

- الكاتب.

قالت ثم وضعت يدها على رأسها مرة أخرى.

- نعم، أنا..

- عرفت أنك تعيش بهذه العمارة، وعرفت أنك مسافر، إلا أنك معنا بكلماتك العذبة.

- رجل محظوظ أنا! لأن جميلة مثلك تشهد لي هذه الشهادة.

- يا سلام على الكلام الحلو، وهل تعرفني؟

- الحقيقة لا.. يكفي أن أعترف لك بأنك جميلة حد الدهشة..

- لم أرَ الدهشة في عينيك، فقط أرى ابتسامة وتوجسا.

- ربما لأن الأمر لم يكن مرتبا، بل جاء بالمصادفة.

- نعم بالمصادفة، أو.. فلا تقل بالخطأ وأنا أعشق الخطأ.

كانت جريئة أكثر مما توقع، أكملت:

- فأحيانا الخطأ يأتينا بلحظات أجمل مما كنا نتخيل، بل يمكن أن يكون هو الصواب، ولم يكن الخطأ إلا في رأسنا فقط، وفي حد ذاته الشر نفسه..

- أحيانا يكون مفزعا.

كان رده سريعًا، محاولاً أن يستفيق؛ لأنه في طريقه لنقد عهده مع النيل وربما عن عمد، فأحيانا نتراجع عن عهودنا مع أنفسنا بأيدينا حتى لا تخنقنا وتضعنا في قيد يحط في كثير من الأمور كبرياء شرفنا..

- أحيانا من وجهة نظرنا، إذا دققنا النظر يكون في حد ذاته رائعا وجميلا، فلربما يأتي بما هو غير متوقَّع. لكنها لحظات، تظل لحظات.

قالت ذلك وهي مستديرة حول نفسها كمن يفتش عن شيء، نظرت له في محاولة منها لتذكر ما حدث أمس مكملة حديثها:

- ربما تلك اللحظة التي نراها عابرة تحمل أشخاصا أكثر قدرة على الحب والملاطفة ممن نظن أن لديهم القدرة عليه، فنكتشف أن من ظننا أنهم يفهمون الحب أغبياء حتى في الحب، أغبياء حتى في التعبير عن مشاعرنا التي تحتاج للتحديث يوميا، تحتاجها بكلمة، أحيانا بنظرة تعبر عن كل شيء.

هز رأسه متعجبا من هذه المرأة التي كانت من لحظات غائبة عن الوعي.. لم تمهله وأكملت قائلة:

- كل امرأة تستطيع أن تقرأ ما بين السطور، الحب ليس كتابا، بل مدارس تدرس فيها أنواع من الكتب، أقصد الحب، لكل واحد منا مدرسته الكامنة في داخله وفي أعماقه، ويمكن أن يكتسب من الآخرين..

- الخوف أن يكتسب من آخرين لا يقدرون معنى الحب ولا يعرفون معناه، بل يفسرونه بشكل خطأ، ما يدفعنا نحو الخسارة الكبرى، يا لها من خسارة قد تمزق حتى أحلامنا.

قال كلماته مبتسما.

- متفقة مع رأيك، فمن وجهة نظري تظل فطرة الحب هي الأجمل والأروع، حتى إن رفضها الكثير من البشر، أو رفضها هؤلاء الزاعمون أنهم أكثر فهما ومعرفة من الآخرين، وعلى من يريد أن يحصل على الحب الحقيقي أن يستفز الطير الساكن في قلب حبيبه ليحلق في سماء روحه..

قالت كلماتها مقتربة وضاحكة من روعه.

ابتعد عنها. قفزت ذكريات خيباته الكثيرة، مسح عرقه، كانت نبضات قلبه متسارعة وأنفاسه متلاحقة كطفل مذعور من مجهول لا يعلمه..

اقتربت أكثر وهي تطارد الخوف في قلب رجل غر، فأجمل ما تمارسه

من عشق لا يكون إلا مع هؤلاء الذين يتعلمون على يديك فنونه عندما يقبلون وأسنانهم مصطكة، عندما ترتعش أناملهم وتنتفض قسماتهم، عندها تعلم أن للحب مذاقا مختلفا تود ألا ينتهي..

شعر بحرارة تغطي جسده، ورعشة اعترته مع عدم القدرة على الحراك، خوف دفعه أن يبتعد، ورغبة جعلته يقترب، وقف ساكنا، ثم استسلم. في هذه اللحظات لم يتوقف عن قبلاته الخائفة المذعورة، حاول أن يبتعد، سألها:

- ما اسمك؟

وضعت أناملها على شفتيه تاركة قسماتها تقترب، انتفض كالعصفور المبلل، لم يجرب تلك اللحظات إلا على أوراقه، ارتمى على أريكته، شعر بالدوران، تساقطت حبات العرق، ليلهث كطفل ضل الطريق..

حملت حقيبة أسرارها التي تداري بها خيبات السنوات، ولملمت خيبتها برجل تمنت الارتماء بين أحضانه بعد أن اخترق ذاتها في لحظات، وشعرت بطهره، لكنه رجل لا يجيد العشق، يقف على هامش الهوى، ولا يعرف أصوله. أفاق من غيبوبته، وجد نصفه على الأريكة، ونصفه الآخر على الأرض. قام مسرعا يفتش عنها، فتح الباب، وجد منديلا أصلحت به ما تبقى من زينتها. ابتسم مدركا أن البسمة التي تغافل شفاه الحرمان هي اللحظة التي يعترف فيها الإنسان لنفسه بكم الألم الذي يعتريه من لحظة شعر فيها أن الخسارة فادحة على أحاسيس لم تجد طريقها الصحيح، أو لم يستطع أحد أن يعيد ترتيبها في أي لحظات لتعرف مسارها الصحيح. تحرك للحمام مثقلا، وضع رأسه تحت الماء، حاول أن ينفض أفكاره الفاشلة وأن يصلح ما في داخله، ليعبر غباوة الآخرين ويقاوم قادما، دخل حجرته ليرتب حقيبته. ارتمى على سريره مستسلما للنوم وهو يسمع دقات المطر على النافذة.

(3)

في صباح يوم السبت الموافق 22 من يناير، استيقظ من نومه شاعرا بالألم لفراق محتوم ومكتوب عليه منذ طرقت الغربة بابه وقيَّدته بحبالها، فما إن فك حبلا عقد آخر بيده أو بفعل ظروف محيطة، حتى أصبح لا يقوى على المقاومة؛ ليظل تبغ الغربة برائحته النتنة يفزعه، وعلى الرغم من ذلك يدخنه، بل ويستمتع به. اليوم سيعود من حيث أتى، تاركا إحساسه الرهيب بالعزلة يعربد فيه. يقصيه عن كل ذكرياته، ويؤجل حلمه الذي يتمناه، وعلى الرغم من إحساس بليد يتملكه أن كل شيء يمكن أن يتغير فإنه يحاول كتمان هذا الإحساس. وضع يده على قسماته المتغيرة معاتبا خطوط الطول وخطوط العرض مع سنوات العمر التي مرت بحلوها ومرها، ليشعر بقسوة الزمن بعد أن تركت ندبها تعنون قسماته. لم يعد ابن العشرين الذي يملأ الدنيا ضحكا لدرجة أنه يسخر حتى من غبائه الذي ينتهجه في بعض الأوقات مرددا كلمته المشهورة: الغباء سترة. ذهب للنافذة، فتحها، استنشق نفسا عميقا، تحدى إحساسه المريب وتقمصه الجدية دائما. في هذه اللحظة تمنى لو تقمص دور المهرج وأعاد ترتيب قسماته، كي يضحك الحضور، على الرغم من إحساسه أنه لم يعد هو المقصود من بين كل البشر، وأنه خرج من اللعبة، أصبح مهمشا لا وجود له في كتاب أي أحد، أو حتى تلك التي فكر بها يوما بعد أن غابت «ماريا» في الدير.. شعوره أنه هامش في صفحة كتاب أبيض مدنس بالظروف القاهرة. حتى الهامش أصبح يرفضه؛ لأنه هو من فعل بنفسه ذلك ومعه كل المحيطين به، يوم تحدث مع امرأة من سراب وكتب عن امرأة من الوهم وعاش لامرأة منهكة المشاعر تقذف من حولها

كي يشعروا بالدماء التي تنزف ممن أصابتهم بسهام الخديعة والنكران لحبهم، امرأة تتسرب من بين الشرايين لتترك سمها القاتل يظهر على القسمات، امرأة لا يعرفها الخجل ولا ترضى الانحناء، لا تكفيها ابتسامة ولا حتى قبلة تعبر إليها المدى، المحزن أنه لن يرتدي وجه المهرج بل تحول لمهرج قزم يفرد صدره العاري للريح لعله يفيق من هوسه، هوسه بسراب يلاحقه في دروب المسافات التي تقوده لخيباته المتكررة. كل ذلك كان في الماضي، آن له الآن أن يبدل دوره على المسرح. كل شيء يدعوه لذلك، لم يعد يليق به هذا الدور، لم يعد يليق به دور المهزوم في شوارع بلدة بليدة راضية أن تنام تحت وطأة الخداع، عليه الآن أن يخلع رداء الرداءة ويحيي الجمهور ويكون هو البطل حتى لو فارق الحياة. أصبحت فكرة الفراق تسيطر عليه لتتسرب في أعماقه فكرة النقصان بعد التمام، وتهب رائحة الموت مسيطرة ومتغلغلة في أعماقه ليتنازل عن أحلامه إلا حلما واحدا ظل متمسكا به، وامتد مع صباه، ظل معه حتى غازله الشيب، ودخل عالم الأربعين. سن الأربعين التي فصَّلها أبوه كثيرًا وحددها بدقة وهم جالسون حول الموقد المستعر بجمرات من الفحم المعبق برائحة الشاي المغلي، في غرفتهم المظلمة، وفوق الفرن الذي ينامون عليه في الشتاء، فراشهم المبني من الطوب اللبني.

يومها نظر أبوه للعروق الخشبية المرتدية ثوب الحداد، مع ضوء مصباح نصف أعمى قائلا:

- الأربعون منه تغادر شبابك وتبحر إلى عالم الرجولة..

ثم صمت تاركا عينيه معلقتين بالعروق الخشبية للحظات قائلا:

- تظل حتى تصل للستين، بعدها تغادر الرجولة وتستعد للرحيل.

لم يدرك حينها كلمات أبيه، لكنه شمت بكل الكبار بأنهم ما زالوا

صغارا، نظر «وليد» غامزا عينيه مؤكدا ما ذهب له، لكنه بعد أن اتسعت نافذته على الحياة، علم معناها، وعرف أنها سن الرزانة والهدوء، سن العمل دون الكلام، سن النبوة والمعرفة، سن سكنه قبل الأوان. عندما كان يغادر كل ما مضى من ذكريات كان هاتفه يرن لتحتله صورة «وليد» الغائب منذ فترة طويلة، رمى ما في يديه، شعر أنه يولد من جديد. أخبره أنه قادم قريبا، أنهى مكالمته وهو ينتظر اليوم الذي سيجمعهما بعد غياب. بعد المكالمة عاد صغيرا ينتظر «وليد» كي يرتمي بحضنه، تمنى لو أعطاه قطعة من الحلوى. حمل معطفه، نزل درجات سلمه مودعا إياها، ومعها شذا العطر الذي يملأ أرجاءها. كان جميل سعيد ينظف مدخل العمارة منهمكا، لا يشعر بمن حوله، ولم تكن هناك ابتسامة على وجهه. كانت قسماته تحمل هما كبيرا وحزنا يشده للماضي ويجذبه لمستقبل لا يعرفه، ومثل الآخرين من أبناء جلدته رضوا بكل شيء، شبعوا من الرضا، وانتفخت بطونهم، أصبح كل واحد كالمرأة الحبلى بجنين اسمه الفقر والإهانة.

وقف أمامه قائلا:

- صباح الخير يا «جميل».

رمى ما في يديه مسرعا ناحيته:

- صباح الخير يا أستاذ. مسافر؟ والله سأفتقدك جدا..

فرت من عين «جميل» دمعة.. سلم عليه، ضمه وربت على ظهره، ثم ابتسم فرحا لأنه شعر فيها بحب «جميل» له، عندما وجد دموع «جميل» تنهمر من أجله، أدرك مكانته لديه. حاول «جميل» أن يحمل الحقيبة عنه ويودعه إلى الشارع بكل ما يحمله من حب له. رفض «سالم» وعبر العتبة ودمعة جميل سعيد. عبر بيته القديم الذي يحبه، وقف منتظرا سيارة،

كان الجو باردا، وبقايا من رذاذ المطر تتساقط، وضع كف يده في يده الأخرى، نفخ فيهما من أنفاسه؛ لتخرج ألما يعتريه كلما همَّ بالرحيل. نظر لشارعه الممتد والانعراجات التي فيه، تمنى لو رمى حقيبته واندفع تحت رذاذ المطر. في تلك اللحظات توقف تاكسي.

نظر السائق وبابتسامة:

- أين يا باشا؟

حرك قسماته في امتعاض لهذا اللقب الذي لا يحبه، وبكلمة واحدة:

- المطار.

نزل السائق، وضع الحقيبة آخر العربة مستبشرا بالمطار..

جلس بجواره، ثم استدار للنافذة مودعا شارعه وذكرياته أملا في العودة سريعًا لوطن غير الوطن، تمنى أن يستيقظوا من غفلتهم، فلطالما نتشبث بالحلم حتى لو كان مريضا؛ فالحلم عند الأحرار يمرض، لكنه لا يموت. الحلم عند الأحرار الأمان في كل شيء، كما تعلمه من أبيه وهما يجلسان أمام حقلهما، متعلما منه دروس الحياة بجلسته التي يضم فيها قدميه، ويشبكهما، ثم يعود بظهره على جذع الشجرة، ونظر عبر المدى.

حرك السائق رأسه، ولم يستطع كتمان كلماته. في مدننا العربية لا يستطيع صاحب مهنة أن يتوقف عن الكلام، فضوله يحمله دائما أن يسأل من أمامه حتى لو كان يعتصر وجعا وألما ولا يقدر على الكلام:

- سيدي..

لم يكمل. نظر له، وأكمل الطريق.

ابتسم وهز رأسه بكلمات لا تعني شيئا..

تحرك بسيارته متعجبا من رجل تظهر عليه كل علامات الاستنكار

بلا سبب. كان السائق مندهشا من غضبه وهو مسافر بعيدا عن تلك المدينة.

لم يتركه «سالم» في حيرته، عبَّر عن استيائه من لقب لا يحبه، لقب يذكره بكل انتهازي جشع فاسد يحتمي خلفه.

لم يتصور السائق أن لقبا تنتفخ أوداج الناس له إذا ما استمعوا له، بل يتمنون أن يلقبوا به، يغضب أحدا؛ ليرد:

- أي لقب يا باشا؟

كانت نظرات «سالم» أكثر غضبا من رد السائق ليضغط على حروف الكلمة قائلا:

- باشا.

في تلك اللحظة كانت يد السائق تخرج من الشباك ملامسة يد شرطي وقف منظما المرور قائلا:

- صباحك جميل يا باشا.

نظر له رافعا حاجبه، وشفته السفلى تحت أسنانه.

بهزة رأس مستغربا منه سائلا:

- هل هناك شيء؟

- باشا!!

قالها «سالم» وهو مندهش من عدم فهمه.

كان السائق أكثر دهشة ليرد:

- باشا!

ضحك «سالم» قائلا له:

- نعم، الباشا يا باشا!

كان السائق يحاول أن يفك غموض رجل بجواره.. حاول أن يكتم

غيظه، انكمش في كرسيه قائلا:

- ماذا أعمل؟ سنة خلف سنة وأصبحت عالة، تجرأ عليَّ الجميع، شعرت أن كل شيء يضيع. حكايتي ليست غريبة، هي حكاية الكثير من الشباب عاشوا بين التراب، وسيُدفنون تحت التراب، ولن يشعر بهم أحد فوق التراب، لا أدري أهو قدرنا! أحيانا أضحك ضحكة عبيطة، حتى الضحكة العبيطة تخرج ميتة. الموت الذي نشتم رائحته حتى أصبحنا نألفه. عندنا ينام بعضنا، ولا يستيقظون يكونون بجوارنا، إذا سألنا الصغار عنهم نقول إنهم نائمون.

توقف السائق عن الكلام بعد أن ضرب رأسه بكفه وهو يبتسم.

لاذ «سالم» بالصمت، حتى لا يشعر كل واحد بألم الثاني، ودع السائق ومضى يجر ألم سنواته، كان المطار مزدحما. قدم جوازه، حملق الضابط فيه بنظرات حادة، بادله النظرات متذكرا الجنية، رفع يده على ذقنه، حركها بسرعة شاعرا بضيق صدره، رفع الضابط عينيه المتنمرتين مرة أخرى، ثم هز رأسه قائلا:

- انتظر قليلا هنا.

انصب تفكير «سالم» على أن هناك من خانه وتخلى عنه، أو ربما رقص عاريا من ألمه أو من خوفه، أو رقص على ضفاف النيل المفضي له بغضبه. ربما غضبوا لأنه تكلم عن الحرية، عن أمنية اغتيال الخوف من قلوب الناس، ربما كل شيء. كان هاجس الجاسوسية يسيطر عليه بأنهم جندوا النيل جاسوسا أو جندوا ظله.. مر عقد تلو آخر وهو يسأل نفس الأسئلة الخائبة التي لا تسمن ولا تغني من حرية، منذ تلون رأسه، وسخر من. كان جالسا في مكانه. خرج ضابط من مكتبه، نظر بابتسامة، عاد سائلا على استحياء:

- حضرتك؟

- حضرتي..

ثم ضحك.. كانت إجابة «سالم» أشبه بمن يحاول الخروج من أزمته.

الضابط في سعادة:

- الأستاذ: سالم محمد؟

- نعم هو بشحمه ولحمه.

الضابط في اندهاش:

- هنا؟!

بصوت ضاحك:

- ماذا ترى؟

كان الضابط يحاول أن يخفف وهو يقول:

- يمكن الجلوس بمكتبي.

«سالم» بسرعة:

- هنا أفضل.

- شرف لي أن أجلس معك.

كان الضابط يحاول أن يخرجه مما هو فيه.

- شكرا لذوقك.

- عفوا أستاذ.

- ماذا لو أصبحوا جمعيا مثلك؟

كان «سالم» يعلم أنه يحلم كمن يحلم بأن يرفرف العلم على سطح القمر..

- أصابعك ليست واحدة!

- صحيح..

- هناك الكثير يرفض ما يحدث، ماذا تشرب يا أستاذنا؟

- لا شيء، يكفي ذوقك.

- سعيد أنك معي..

- وأنا أكثر.. لو أصبحوا مثلك سأتبرع بالجنيه، وأغيظ شوبنهور.

- شوبنهور.. من هو؟

- فيلسوف ألماني خفيف الظل عاش بإنجلترا، حمل في جيبه جنيها إنجليزيا وهبه للخير، إذا توقف الجنود الإنجليز عن الحديث عن المرأة والخيل والخمر، لكنه مات والجنيه ما زال في جيبه ولم يضعه على طاولة الطعام في المطعم الإنجليزي الذي كان يجلس فيه.

- جميلة.

ثم رفع رأسه مستفسرا عن جنيه الأستاذ «سالم»:

- معي جنيه!

- ومتى؟

- إذا أصبحوا مثلك..

- سأقول لأبي: إنني رأيتك، سيفرح كثيرًا.

قالها الضابط وهو يضحك.

- وأنا سأتذكرك كثيرًا.

- ماذا حدث؟ ولماذا أنت هنا؟

- قصة قديمة..

بينما همَّ أن يحكي كان هناك من يبحث عنه.

خرج الضابط، ثم عاد ومعه شخصان. مشى بجوارهما وهما يدبان الأرض بثقة. لماذا لا؟ وقد استطاعوا أن يجعلوا الشعب في قفص الاتهام، وعليهم أن يثبتوا العكس وإلا لن يجدوا إلا التنكيل ونسيان أنهم بشر

أو من الأساس كانوا كذلك، مجتمع يعيش تحت سيطرة عصابة تحمي هرما نسي ذلك. هنا منذ سنوات مضت لا يتذكرها، ربما بعدد أصابع اليد دار حوار مع ضابط. كان صادقا أو ربما ادعى ذلك، قال له:

- غضبان؟ كل يوم نقبض على بشر، نظلم مليونا ويعيش الباقي في سلام.

- ليعيش الباقي في رعب ويظل من سرقوا الوطن في أمان، ويضحكون على أمثالنا باسم كلمة الأمن والاستقرار.

- شعارات أهلكم سبب ما نحن فيه. أتعرف؟ ما رأيك في نكتة تخرجك من حالة الغم؟

يوما ما لا أذكره. سأحكي.. لا تنظر هكذا.

وجد الناس فأرا يجري خائفا، سأله الناس:

- لماذا تجري؟

قال لهم:

- أمن الدولة يقبض على الحمار!

سألوه:

- أأنت حمار؟

قال الفأر:

- ومتى يثبتون أني فأر؟

ضحك «سالم» بعد أن شعر بالقلق، كانت ضحكته تمنحه قوة كامنة تصحح في أوقات كثيرة مسار مشاعره؛ ليقاوم بها تلذذ الآخرين بالأذى الذي يلحق به ولا يشعرون بألم الضمير. كان الممر ضيقا طوله ثلاثة أمتار معتم الروح، تفوح منه رائحة مزكمة، يطل على غرفتين. كل واحدة لها باب من حديد، واحدة للرجال وأخرى للنساء. هنا دخل أول مرة منذ

سنوات، كان عمره في أواخر العشرينات، لم يعرف ما سر وجوده! تركوه ساعات، جلس قلقا، كانت وجوه كثيرة بجواره أو على مقربة منه، الأسود منها والأبيض، لم يهتم بأحد ولم يبالِ، يومها استوقفته دمعة أمه وخوفها عليه، نام ليلته وحيدا خائفا من المجهول. في الصباح وضعوا القيد بيده، انتقل لمكان آخر، ابتسم وهو يشاهد القاهرة من خلف القضبان، جاءها فرحا لكنها تجهمت في وجهه، سرقت من ملامحه البسمة. بعد ساعة وسط زحام القاهرة، كانوا أمام مبنى ضخم بوسط القاهرة دخله بعد أن وضعوا عصبة على عينيه، وقف يسأله عن اسمه وعن حكايته وعن... لا يعرف، كل ما يعرفه أنه نزل في باطن وادٍ سحيق مدفوعا بيد غليظة ظنت أنها تخدم وطنا. منذ ذلك اليوم، ومنذ دفعه الرجل كخروف يضحَّى به، فك من على عينيه عصبة كانت من قطع القماش الخشن الذي تُرك تحت حرارة الشمس بعد نقعه في الزيت، لكنهم تركوا القيد بيده في هذه الزنزانة المدفونة تحت الأرض، نظر حوله، كان المكان برائحته وجدرانه، يختلف فقط في حراسه. لم يشعر برغبة في النوم على الرغم من تعوده بأن ينام هربا من عدم القدرة على قول لا. في هذا الموقف تقلب على فراش مدركا أن الكثير من المستضعفين قد ناموا عليه، وسينام غيرهم، ما دمنا نعيش في عصور الاستبداد والضعف لكل البسطاء من البشر، كانت أسماء مكتوبة وأرقام هواتف وحكايات لأب لم يرَ صغاره وآخر لا يعرف وأنه مرعوب، كان يتأمل كل قصة ويعيش بها، بل والأكثر من ذلك يبحث عن سبب قيود توضع لمجرد هاجس مزروع من صاحب الكرش، تمنى لو وجده وضربه ضربة واحدة. لم ينم، فقط حزن على كل من ناموا على هذا الفراش، أثناء خروجه كانت امرأة أفريقية تجلس وتتحدث الإنجليزية بسرعة وتصب جام غضبها على من ضحك عليها

وقادها إلى هنا. جلس بجوارها. نظر لها، كانت علامات القلق تحيط بها، حرك أصابعه في لعبة سخيفة تعلمها ذات ليلة وهو يغتال الوحدة، في تلك اللحظة فاحت رائحة عطرة، ملأت المكان، بحثت عيناه عن مصدره، توقفت أمام جميلة. ألقت السلام عليه، مدت كفها الناعمة، شاهد امرأة مختلفة. جلست بجواره ثم أخرجت علبة السجائر ونفثت دخانها، كان يتشكل حولها، رمت السيجارة ثم دهستها بقدمها، نظرت حوله ثم حنت ظهرها مقربة رأسها من أقدامها، كانت أناملها تتحرك بسرعة في لعبة تبادل الأنامل. نظر لها ثم عاد لهواجسه، كان الشرطي القابع أمامه يضحك بصوت مرتفع، لم يكن يهتم بمن حوله، اقترب منه، سمعه يغني: صافيني مرة.. كان صوته نشازًا، لكن المرأة التي سمعها وسط أصوات الموجعين كان صوتها جميلا. تتبع الصوت، وقف عندها وهي ترتدي ملابسها البيضاء، كانت علامات وجهه ترفض ذلك. رفعت رأسها وقد جمعت ملامحها كلها تحت عينيها قائلة:

- هل من المعقول أن أحزن على كل هؤلاء؟ كيف سأقدم لهم العلاج؟ لو فعلت سأكون بجوارهم، أليس صحيحا ما أقول يا سيد؟

لم يكن اسمه السيد، علم أنها تسخر منه، تركها ومضى. الآن يحتاج من يلومه ولو بنظرة بعد أن تعود أن يرى كل هذه الوجوه القلقة دون مبالاة..

سألته بعد أن توقفت عن حركة أناملها:

- ممكن سيجارة؟

دون أن يرفع وجهه قال:

- لا أدخن.

بنصف ابتسامة مغتصبة:

- شكرا.

وضع رأسه وأخذ يلهج بكلمات تخرجه من همه وألمه من حكاية لا تريد الانتهاء، كان شعور بمن يغتصب يطارده كلما دخل هنا وعرف أنه لا يستطيع عبور هذه البوابة، تماسك قليلا، حاول الخروج من أزمته ورسم بسمة على شفتيه وعاد لمن بجواره تاركا المرأة السمراء التي لم تتوقف عن العويل، عاد مرة أخرى لتلك الجميلة سائلا إياها:

- من أين؟

كان ردها سريعًا ودون تفكير:

- فلسطينية.

أراد أن يكسر الحاجز أكثر مشيرا برأسه سائلا عن سر وجودها هنا.

أجابت دون الدخول في تفاصيل:

- لا أعرف، لكنني هنا شئت أم أبيت، لا خيار لي.

أراد أن يخرجها من هذا الألم فسألها:

- لك أقارب هنا؟

أجابته وهي تقضم على شفتيها:

- وجودهم كالعدم.. أتعرف؟

- ماذا؟

- لا شيء مطلقا. لا شيء يستحق الاهتمام.

قالت كلماتها ثم ضحكت.

- من يرى ابتسامتك لا يصدق ما بك من حزن.

- تعودت أن أبتسم في شدة اللجاجة من الألم؛ فالموج الصاخب لا يعني صخبه في الأعماق؛ فالحزن دائما ما يسكن، يسكن إذا كان ممن

نحب، الجلبة لا تصنع ألما، الابتسامة وحدها هي أعظم الأسلحة التي تواجه بها كل ما يقابلك.

- لك حق.

تضحك قائلة:

- واضح أنك رقيق جدا، ممكن طلب؟

هز رأسه مجيبا.

- أحتاج سيجارة.. أيمكن ذلك؟

- لحظة.. كيف نشتريها؟ ماذا غير السجائر؟

- لا شيء.. سجائر فقط!!

عاد للوراء، ركن رأسه على المقعد الشاغر، كان الطريق مظلما بعض الشيء، وكانت تتصف بالجرأة التي لا تُحسد عليها، وضع رأسه في الأرض هربا من نظراتها.

ضحكت قائلة:

- ما هذا يا صغيري؟ أتخجل في زمن تعرت فيه الوجوه؟

فتحت يديها منادية:

- تعال لحضن ماما.

كانت تسخر منه ومن خجله، تصورته صغيرا أمامها، شعر بالمهانة. قرر أن يتحرر من القلق والخوف، أن يتحرر من هذا العالم المرسوم على أوراق العاشقين، ترك قبلاته تصنع تاريخا جديدا في عالم الحب. تمادى في قبلاته تعبيرا عن قوته، كان شعوره بالخيبة أكبر لأنه كثيرًا ما وصف تلك الحالة، ليظن كل من حوله أنه على دراية، يوما رد عليه صاحبه بعد أن شرح له الحب:

- إن التمادي في وصف حالة حب هو أكثر المشاعر قسوة؛ لأننا ندرك

عندها مدى فشل هذا السارد في الحب.

أكمل:

- من يعرف لا يتكلم كثيرًا.

دفعته في صدره متشبثة بتلابيب رجولته متمنية أن يعود مرة أخرى لتلك الشفاه؛ لتقضي ليلتها بين أحضانه، وتنام على حبات من عشب طيبته، شعرت بدفء رجولته، تمنت أن يبقى معها.. تمنى أن يكون.. لكنه قرر أن يكتب صحيفة غيابه وأن يندفع للرحيل. كانت المرأة الأفريقية تلعن كل شيء وتصفه بالقردة. كان يستمع لها وهو ينظر في عين الجميلة، هز رأسه، استفاق سائلا مرة أخرى:

- هل أحد يحتاج شيئا غير السجائر؟

شكروه جميعا..

في اللحظة نفسها، خرج شاب يرتدي ملابس رياضية، وقف ونظر لها للحظات ثم سأله:

- أراك مطمئنا للخروج!

- لوقت قليل، تعودت منذ سنوات وأنا أمر من هنا ذهابا وإيابا، كأنه وتر في كل رحلة.

- لماذا؟

- لا أعرف، كل ما أعرفه أنني كحقيبة ضلت صاحبها، وسرعان ما يلتقيان بعد أن تشوهت بيد العابثين الضالين الذين لا يعرفون إلا الأذى والشر.

صوت قادم من داخل الحجرة:

- لديكم في بلادكم هاجس أمني خطير ومريب في آن واحد.

ضحك وهو يسمع الكلمة بلكنته.. جعلته يعرف أنه من بلاد المغرب،

سـألـه:

- مغربي؟

- نعم مغربي.. من بين البحر والمحيط.

- أهلا بك.. من أين؟

- من طنجة..

- أهلا بك بمصر.

- لذلك أنا هنا!

- لا .. لا تقلق، ستعود لها مرة أخرى.

- لن أعود أبدا..

- ليست مصر وحدها.

حالة من السكوت جعلته يعود لتلك المرأة التي يفوح عطرها. عندما أراد أن يتحدث جاء من يناديه، ودعهم وهو يعلم أنه لن يلقاهم مرة أخرى. خرج في ممر ضيق ومظلم، كنفق هدم مدخله. كان بجواره رجل طويل وشارب فُتل على الجانبين، دخل حجرة أنوارها خافتة بمصباح مغمض العينين، وبصوت يعلن عن النجاح في القبض على مجرم خطير:

- المطلوب يا باشا..

سمعها من أحد الرجلين المكلفين باصطحابه. رجل لا يعرف الابتسامة، يعتقد أنه الخادم الأمين للأمن. وقف ينظر للضابط الذي لا يعيره أي اهتمام. كان يجلس واضعا رجليه على كتاب فوق المكتب.. لم يستغرب نظرته ولا جلسته، يضحك متذكرا ما لاكه الناس عن خدمة الشرطة للشعب، بعد دقائق مرت من صمت مقصود..

بلا أي اهتمام ودون أن ينظر له، سأله:

- اسمك؟

- أمامك في جواز السفر.

كان رده غضبا.

بلهجة بها حدة:

- أسألك عن اسمك يا...

أكمل وهو ينظر له باستهجان موجها سؤاله:

- أليس من الجائز أن تكون سارقا للجواز؟

- سرقته من أجل أن أراكم.. أليس كذلك؟

- فلسفة أمكم هي التي صنعت بكم كل هذا.. عارف ليه موجود هنا؟

- أتعرف أنت؟ لماذا أنا هنا؟

كانت إجابته حادة، لا يدري ما سبب ذلك، ليكمل:

- منذ أحد عشر عاما وأنا أسأل.. لم أجد غير خيبة الصمت وبلادة الجواب والرضا في موضع لا رضا فيه.. كنت أسأل: لماذا أمر عليكم كلما عبرت من هنا؟

- تقف من 11 سنة ولا تعرف لماذا؟

- ليتك تقول لي، تجيب عمًّا يعتريني، ليتك تعرف. أتعرف أني أقف من قبل أن تكون أنت هنا في مكانك؟ في كل مرة أقابل وجها مختلفا، لا يختلف كثيرًا عمن قابلتهم، ما يجعلني أتعجب.

أتعرف حقا لماذا أنا هنا؟ كيف نتخلص من هذا الشعور؟ قالوا: إنني عدو للوطن. بعد فترة تأسفوا لي، لكنهم لم يعترفوا بالخطأ. تمنيت لو يأتي يوم يعترفون فيه باقترافهم كل الذنوب الماضية.

بعد صمت قطعه صوت الهاتف القادم للضابط. نظر لعينيه مع ابتسامة قائلا:

- رحلة سعيدة.

خرج من عنده، كان يهتز كشجرة جفت فروعها. تحرك متحملا كبقية الراضين بالهوان وعدم المواجهة، وتحمل الألم للحظات بدلا من تحمل سخافات لزمن لا يعلمه إلا الله. كانت تلك الخطوات معتادة ونفس الشعور الصاخب المتمكن منه في تلك اللحظات، لم يرَ أمامه سوى خطواته ولم يسمع غير أنات وجعه من وطن أحمق القسمات مع أفكار قلقة. عبر الحجز دون أن يدخل أو يشير، عاد لخيبته التي لا يعرف سرها حتى الآن. كان ضابط الجوازات يتتبعه بنظراته المتنمرة. حاول أن يجد مكانا يستريح فيه، اختار مكانا هادئا، وفتح جريدته؛ ليختبئ خلف أحداثها المتشابهة. في تلك اللحظة كانت نظرات امرأة تبحث عن مكان. ابتسمت له قائلة:

- هل أحد هنا؟

رحب بها موافقا أن تشاركه المقعد الأمامي المواجه له.. كانت قصيرة ذات عينين سمراوين، ناهدة بعض الشيء، كانت تبرز مفاتنها بشكل غير لافت، عند انحنائها عبق عبيرها المكان، لم يعد لجريدته، طبقها ووضعها بجواره، التقت عيناه عينيها. تبادلا الابتسامة، كانا لديهما استعداد لتبادل الحوار والتعارف أكثر وأكثر.

أراد أن يتحدث ويتحدث حتى ولو كان مع نفسه، كان يشعر بغصة في حلقه.. بعد قليل بادرها قائلا:

- «سالم».

قالت وهي تشكره:

- إسراء.

- اسمك جميل.

- وأنت أيضا.

عادا لصمتهما، ترك المقعد طالبا فنجانين من القهوة. عند عودته تعثر بحقيبتها التي بجوارها، ضحك وهو يقول:

- حتى الحقائب ترفضنا.

كانت كلمته مؤلمة، قدم لها الفنجان. في الرشفة الأولى صوَّب عينيه في لقاء عابر ربما لا يتكرر مرة أخرى، في سفره الطويل وانتقاله من مطار لمطار قابل وجوها وتعرف على أناس وكلهم اختفوا ولم يكن لهم أثر إلا أنهم أصبحوا عددا، لا يعرف أأصبح زوجيا أم ما زال فرديا.. عاد لها قائلا:

- إلى أين؟

- أمريكا!

- زيارة؟

- منذ خمس سنوات هناك، بمعنى آخر أصبحتُ أمريكية..

- أتعملين أم...؟

- أعمل منذ سافرت إلى أمريكا.

- بأي مجال تعملين؟

- في مجال الذرة.

- طبعا لم تجدي غير الإهمال فقررتِ حمل أمتعتك وهاجرت إلى هناك.

- الإهمال؟! عجيب أنت، ألا تعرف بلادنا؟ الإهمال تقدير في وطننا، يا سيدي أنت تواجه حربا شرسة، حصلت على تقدير امتياز، لم أعيَّن لأنهم اعتذروا عن قبول معيدين في عام تخرجي، مكاني كان محجوزا لابن العميد. كان متخلفا إلا أنه يحصل على تقدير امتياز. قررت الهجرة..

- ألم تحاولي أن تجدي فرصة؟

- وهل حاولت أنت؟

- ظروفي مختلفة.

- وأنا ظروفي أيضا مختلفة.

- ألم يعترض الأهل؟

- لن أجيب.

قالتها ثم ضحكت.

ترك لها حرية الاختيار وأن تكمل حديثها كما تحب.

أجابت مسرعة كأنها تلتقط الحديث مرة أخرى:

- هناك وجدت نفسي في بلد لا أقول إنه بلد جميل، وبلد يحترم الحريات من وجهة نظري، بل يحترم العلم وأصحابه.

- رائع جدًا.

- الأكثر روعة هو مكانك بقدر ما تقدمه من فائدة. لن أقول لك الحياة وردية، لديهم فساد ككل الدول، حكمة الله في أرضه، لا تخلو أرض من الخير والشر، ما يميزهم حقا أنهم يحبون بلدهم.

- الجميع يرون وجهة نظرك، أقصد ماذا عن المشردين في شوارعهم؟

- غالبا ما نرى الحياة بمنظور المصلحة الخاصة، أنا أعيش حياة رائعة؛ فمن وجهة نظري أن أمريكا بلد لا يقارَن، لكن أعرف أن هناك وجهات نظر أخرى، أنا حرة في وجهة نظري، يعني أرى كل شيء انعكاسا للآخر، لا تجد تفاوتا.

- جميل، لكن ممكن توضيح؟

- مثلا عندما تمشي في الشارع تجده انعكاسا للبيوت؛ بمعنى إذا ما رأيت شارعا جميلا سترى بيوتا جميلة، والعكس صحيح، لكن هنا يمكن أن ترى الشارع سيئا، ولكن البيوت من الداخل مختلفة.

- وسبب ذلك؟

- ربما لأنهم تعلموا حب الوطن.

- كلنا نحب الوطن، وأنت أيضا، وإلا فلماذا أنت هنا الآن؟

- الوطن، نعم كلنا نحب تلك الأرض التي قست علينا، لا أنكر، لكن هل تشعر بالأمان فيها؟

- الحقيقة وجهة نظري من جهة الأمان تختلف عنك.

- كيف؟

- بمعنى أن الأمان عندي أن أمر من أمام الجوازات بالمطار دون أن يقال لي: استرح هنا.

- أين تستريح؟ بمكتب الضابط لتحتسي فنجانا من القهوة تقديرا لك؟

- تقدير وقهوة؟!

ضحك دون أن يدري بصوت مرتفع..

- ماذا إذًا؟

بكل علامات الاستغراب والحزن على ما ظهر من ضحكته.

- لا لا، فقط زيارة لأمن الدولة، للتذكرة أنهم حريصون عليَّ، حريصون أن يبلغوني أنني تحت السيطرة.

- ماذا؟

قالتها وقد جمعت كل قسماتها تحت عينيها بنظرة شرسة.

- لا شيء، فقط إحساس أنك بأمان في ظل وطن محاصر من كل حكامه.

- هذا هو أنني حاولت البحث عن وطن يأخذني في حضنه؛ لأنني أصبحت أكره كل شيء آنذاك في هذا المكان، أتعرف معنى أن تجد تعبك

يضيع منك في لحظة؟

نظر لها وهي تلتهم الكلمات وكأنها تحاول أن تنزع سهاما من الغدر غُرزت بقلبها الذي لم يتحمل وجع الغربة، هز رأسه ليشاركها ألمها لتكمل:

- سأضحكك، الآن يرسلون لي من أجل إلقاء محاضرات. يتركون عباقرة ببلدنا لا يعرفهم أحد ويرسلون لي.

- ليس بجديد، لكنهم اختاروا.

- اختاروا، ومن أجل اختيارهم نجلدهم كل يوم بإهمالنا. أنا تلميذة لعلماء يزلزلون الأرض تحت أقدامهم، ويقدرون أن يفعلوا ما لا تصدقه، لكنهم لا يجدون لقمة العيش. صدمت عندما وجدت أن بعضا من الأساتذة يعطون للطلاب دروسا خصوصية، والله بكيت، العلماء أماكنهم الطبيعية المعامل، وليس بيوت الناس.

قالت، ثم هزت كتفها..

أومأ برأسه مجيبا ومصدقا لها؛ ليطفو «وليد» الذي ترك كل شيء وضاع خلف كل شيء وكان يبحث عن كل شيء.

سألته:

- وأنت، إلى أين؟

- سأزور دبي، وبعدها الكويت.

- في أمان الله.

- مع زوجك هناك؟

حديثها جعله متشجعا؛ ليكمل معها.

- واضح أني متزوجة؟

قالتها متبرمة؛ فالمرأة تسعد دائما إذا شوهدت كفتاة ما زالت تطرق الأرض معلنة عن جمالها.

- لا أقصد، واحدة زي القمر أكيد مرتبطة.

كانت كلماته لا تعني سخرية، لكن محاولة منه أن يخفف غضبها.

- تغازل حضرتك؟!

حجزت ابتسامة على شفتيها ونظرت له وكأنها تحفزه ألا يخاف، بل عليه أن يقتحم سدود التعارف ويكون كالفيضان.

- آسف، بس بجد انتي قمر.

مزح كعادته بعد أن منحته صكا ليزداد في تعارفه.

- تخيل، افتكرتك ستقول بالفعل، أقصد عامة لا تغضب، هكذا كنت.. منفصلة بالمعنى الشيك، ومطلقة بالمعنى البلدي.

ثم تلتها بضحكة واضعة أصابعها على الشفاه.

ابتسم قائلا:

- ليس له حق.

- الحقيقة هو له كل الحق أن يفعل ذلك، ومن يطيق امرأة مجنونة مثلي؟ أنا من طلبت الطلاق، أنا من حررته من براثني.

- أيضا ليس محظوظا أن تطلبي الطلاق منه.

مزح مع امرأة تركت الابتسامة تغطي شفتيه.

- عدت للمغازلة؟ هكذا أنتم أيها الرجال، تمرنون أنفسكم على مغازلة النساء في كل صباح وفي كل مساء كأنه وتر عليكم.

ضحك، وأومأ برأسه مؤكدا فكرتها.

عادت للحديث عن زوجها التي انفصلت عنه قائلة:

- يا سيدي هو رجل رائع، بل أكثر من رائع، طيب القلب وحنون ومتسامح، وأنا امرأة عملية جدا، مجنونة جدا، أحتاج رجلاً مجنونًا مثلي..

- المجانين كثر في هذه الحياة، لا تشغلي بالك.

- المجانين، آه.. أين هم؟ أتعرف؟ في البداية كانت حياتنا نتقبلها على الرغم من الحظر والخوف أن نقع في حفر لا نستطيع العودة منها مرة أخرى. بعد ذلك اكتشفت أنه قدَّم لي كل ما تحبه المرأة. في الصباح يوقظني بقبلة على جبيني، ثم يستريح على صدري قليلا، وينعتني بحب عمره، يصحبني إلى عملي، ثم يذهب إلى عمله. رجل ناجح إلى أبعد تصورك، أنيق في فكره، لكنه تمرُّدنا يدفعنا أن نتذوق مرارة الأشياء بأيدينا. هو الجنون والغباء: لنحوِّل ما هو رائع إلى مؤلم، بل أكثر إيلاما. تجربة قاسية جدًّا على نفسي، أكثرها قسوة أنني اخترت طريقا معتما. لم أكن أعرف أنه معتم بهذا الشكل إلا بعد حصولي على اللقب، وأصبحت مطلقة بجدارة. هنا فقط شعرت بخيبة كبيرة، شعرت أن الحياة لا تمنحك كل ما تحب، تسلطت نفسي عليَّ فشعرت بفداحة ما تخليت عنه.

- نادمة؟

- ماذا ترى في كلامي، ندما أم فرحا؟

كانت أسنانها مضمومة في حالة استعداد للفتك بغباء رجل يحاول أن يستفزها.. أكملت:

- الآن، الندم لا يفيد، في ظل ضياع من كانوا بالجوار، ضاعوا برغبة منا، نحن مجانين نفقد من نحب بأيدينا، ونترك لهم حرية الخروج الآمن، لم ننتبه لهم فخرجوا عاتبين بنظرة أسى. خرجوا دون أن يكسروا فينا جدارا أو يشرخوا مرآة لنا. خرجوا خروجا آمنا بكل ما تحتويه الكلمة من معنى. لم أعد قادرة على العودة للوراء كلما ارتميت في صمت خائب بليد ورأيت تفاهتي في اتخاذ قرار. ظننت أنني الأقوى حين أخذته، كنت أبتسم وهو يرجوني ولم أستجب. الآن هو مبتسم وسعيد، وأنا مجموعة

من ابتسامات أسى تداري خيباتي.

توجعت بلقب لا تحبه امرأة، لكن على الرغم من ذلك كان طلاقي استراحة من عناء الإحساس بعدم القدرة على تلبية رغبته، بعدها اكتشفت من يستحق أن يكون بالجوار ومن يجب علينا أن نقذفه من حياتنا. ثمة أمور تظهر في حياتنا فجأة دون سابق إنذار تكشف لنا الكثير من الوجوه التي تختبئ خلف مساحيق النفاق.

- موجوعة على الرغم من ابتسامتك!

- كنت أحبه، ذكرتني ببسمته، بآخر حلم التقينا به، وبكلماتنا الحلوة عن الحب، قررنا معًا أن ننسى معنى الوجع ولو لقليل من الوقت، قررنا دون أن ندري أنه كان حلما.

أكملت:

- المشكلة أنني لست رومانسية، جادة جدًا في عملي.

ضحكت وسألته باستهجان:

- ما الرومانسية التي يحكون عنها؟ ألا تتفق معي أنها نبتة لا أرض لها؟

- لا أتفق معك.

- لماذا؟ أنا قلت إنك رجل جاد وعملي.

- الحقيقة أعشق الرومانسية.

قالها وهو يبتسم.

- إذًا لا نصلح لبعضنا.

ثم أطلقت ضحكة جعلت مَن حولها ينظرون.

كانت جرأتها الممزوجة بالمرح تعجبه، وصدقها البالغ يشده، وتواضعها يرسل له إشارات للمزيد في التحدث معها. ذلك كله جعله

يتشجع قائلا لها:

- الحقيقة ربما العكس هو الصحيح.

- لا، أنا أرى أنه أمر مستبعد بعض الشيء.

- بما أنك امرأة عملية كيف تحكمين على تجربة لم تحدث؟ فما نظن أنه لا يصلح لنا قد يكون الأفضل، والعكس صحيح؛ فرباط الزوجية له سحر خاص، لا يدركه إلا من جربه وارتضى معرفة الآخر وتقبل عيوبه، بل والاستعداد لإصلاحها.

- يا سلام، أنت رائع، لكن عليَّ توضيح مسألة التجارب هذه، التجارب هي أنه لا ينفع أن نضع مثلا مركبا كيميائيا مع مركب آخر؛ لأنه سيُحدث اشتعالا، وهذه نتيجة تجارب سابقة، فمن الحماقة أن نقول إننا لم نقم بتجربته بأنفسنا، وإذا ما فعلنا من المحتم أننا سنحرق أنفسنا والآخرين، فهمت ما أريد؟!

- أبصم بالعشرة فهمت.

ضحك مكملا حديثه:

- هذا الأمر في التجارب العلمية، ليس أبدا في العلاقات الإنسانية، صعب أن تطبق على الإنسان.

نظرت له بحدة ثم قالت:

- أتفق معك، مع تحفظي، لو تأملنا الأمر جيدًا يمكن أن يختلف؛ فعلوم الطبيعة تشاركنا حتى في الإحساس..

حملق في عينيها بشدة ثم قال:

- من وجهة نظري المتواضعة، بمعنى ما قد نقبله اليوم من المسلمات في علاقاتنا قد يختلف بعد فترة من الزمن، ويحدث أكثر بعد اتساع تجاربنا وأن ما نرفضه قديما يمكن أن نراه الأصوب والأجدر في لحظة

مستقبلية.. أليس صحيحا ما أقوله؟

أخرجت شفتها السفلى للأمام ثم وضعت يدها على الطاولة وقالت:

- بلى، كلامك صحيح، لكن أحيانا تصاب مشاعرنا بالعطب، وبانفصال الجزئيات فيها كأنها مصابة بداء العنصرية ولا ترى أهمية في الاكتمال بالآخرين، بل يمكن أن تنعزل تماما؛ ليتحمل القلب وحده الاختيار الصعب، في محاولة مستميتة بأن يجمعها في معادلة تكاد تكون صعبة التجريب على أرض الواقع، أو داخل معامل البشر، بل يمكن أن تحطم نظريات كنظرية «نيوتن» مثلا؛ فالحب من طرف واحد ليس له رد فعل مساوٍ له في المقدار ومضاد له في الاتجاه، بل يذهب بعيدا، وتحطمه مسافات الغياب. وعلينا عدم الاعتذار بالجهل لأصول الحب إلا في حالة واحدة إذا وقعنا في حالة عشق تحيط بنا من كل ناحية. هنا يا صديقي يمكن أن ننحي كل شيء ونقبل الاعتذار بالجهل للقوانين..

- لقد دخلنا المعمل فعلا وأخاف من الانشطار الآن.

قالها ثم انفجر ضاحكا من امرأة تشكلت بمعملها، لكنه تقبلها وسعد بها.

عادت لابتسامة نصف مغتصبة قائلة:

- اتفقنا أننا نرتضي ألقابا تغضبنا، ربما لو جلست معك فترة أخرى ستغضبني أكثر وأكثر. في آخر الأمر أنت رائع؛ توافق المرأة ثم ترمي رأيها خلف ظهرك مثبتا عكسه!

- لست لهذه الدرجة.

خرجت كلماته تائهة وسط ضحكاته.

- لا أدري، لكنك رائع وبحق.

- ربما أكون كذلك وربما لا، إلا أنه من المؤكد أنك الأروع..

- شكرا لك. تقصد أننا لم نجرب؟

- مشكلتنا أننا نشاهد القالب الخارجي للصورة دون الغوص في ألوانها، ونحن في علاقات الحب لا نتصور من نحب إلا اللوحة المكتملة الخارجية بكل ما تحمله من جمال. هذا من أكبر الأخطاء التي نقع فيها. علينا أن نرى تفاصيل من نحب، حتى نرى جماله الحقيقي، ونرى ما فيه من عيوب كي نتقبله بكل تفاصيله.

- أقنعتني، سأفكر بشكل مختلف في حياتي الجديدة، والحمد لله أن الحوار معك لن يستمر كثيرًا، وإلا غيَّرت وجهتي وتحولت معك لدبي، وهذا مستحيل لأنك رجل رومانسي وأنا امرأة عملية. أيام سوداء، أصبحنا العكس. من الفطرة أن أكون في مكانك، وتكون أنت في مكاني..

ابتسم محاولا التوضيح لها قائلا:

- أنت مشوشة في مسألة الرومانسية والعملية.. بالنسبة للرجل هما أمران يتشكل بهما تكوينه وعليه دائما أن يوازن بينهما، وعلى الرجل ألا ينسى أن يكون لطيفا وعذبا ومحبا ومحتالا في الحب والرومانسية!

- يكون محتالا؟ الاحتيال ترفضه كل الأعراف وحتى العلاقات الإنسانية.

ضحك وهو يقول لها:

- إلا الحب، الاحتيال أمر رائع.

ارتشفت فنجان قهوتها وهي تقول:

- ربما.. وماذا أيضا؟

لم يكن يريد أن يتوقف، أراد أن يوضح لها أن الحياة بها أركان كثيرة يجب أن نراها كما هي، ثم أنهى كلامه بقوله:

- رقم هاتفي، أتمنى أن نظل صديقين.

- مسرورة لمعرفة رجل مثلك، هل زرت أمريكا؟

- لا.

- هذا عنوان عملي ورقم هاتفي، أتمنى أن أراك هناك.

ابتسم لها وتوارى خلف صمته وخلف رشفات قهوته.

شعرت أنها أمام رجل مختلف في مشاعره وفي فكره، ومثله مقنع، دفعها ذلك بغريزة الأنثى أن تسأله مرة أخرى قائلة:

- أليس غريبا أنك لم ترتبط من قبلُ؟

- بلى.. ماذا نفعل في غربة سرقتنا خلف ستائرها الحريرية، فإذا بعمرنا يضيع؟ وعندما تحركت الغريزة كنا قد هرمنا، فصعب الاختيار، بل الأصعب على القلب أن نجد كل زهور حياتنا تجف واحدة وراء الأخرى ونحن نشاهد كالبلهاء لا نملك غير مصمصة الشفاه.

- لك حق.

رفعت يديها تحت عينيها لتسأله:

- ما عمرك؟

كان الوقت يداهمه وصوت المذيعة الداخلية يعلن عن اسمه وتأخره.

قام من مكانه قائلا:

- اسمي..

سلم عليها عابرا رحلة أخرى.

قبل أن يتركها ويغادر لرحلته ذكَّرته ألا ينسى الدعاء وأنها ستنتظر اتصاله..

(4)

شهد اللقاء الأول فراقا مع امرأة منحته قدرا من الحياة للحظات، كانت «ماريا» تسير بجواره تتبع ظله، لم يدر ماذا يفعل! الطريق الممتد هو هو والحياة هي بكل ما فيها من اختلاف، ظل يبحث عن نفسه في كل الوجوه التي تقابله إيمانًا بأننا جميعًا نبحث عن ذواتنا وأحلامنا في عيون الآخرين، لكن الخوف إن أغمضوا جفونهم فنضيع بين مآقيهم ونغرق بين دموعهم المتساقطة. تحرك ناحية البوابة تاركا ذكرياته خلفه، لم يشعر بالوجوه الراحلة، ولا بتلك المدن التي لم تشعر به يوما. أسرع خطواته، شعر أن الدقائق تسحب منه. في هذه الصالة من سنوات مرت، وقف كالضال طريقه ينتظر الحافلة لتنقله للطائرة، لم يعرف أن العمر يمكن أن يضيع بين الحافلة والطائرة، كم وقف كغريب يبحث عن نجاته، لكن لا أمل والموج الهادر يأتي من خلفه ويدفعه نحو القاع. عمره الممدد هنا على هذه الأرصفة باختلاف أشكالها لم يرَ فيها إلا الوجع والقهر، كان يخطو للخروج من البوابة في انتظار السيارة التي ستنقله لسلم الطائرة. نظر خلفه وهو يصعد درجات السلم، لم يرَ أحدا بجواره، كان وحده يشق عباب القاهرة ولم تكن إلا ذكرياته وهو ينظر قاضما على شفتيه متذكرا أن كل أحلامه في الحب مؤجلة وصوته مكتوم في الأحشاء حتى أعمدة الإنارة بشوارع ذكرياته مطفأة، وحده يجوب في الظلام. كان صوت الطائرة مزعجا، يسيطر على المكان. مر العمر وهو يصعد سلم طائرة، ويهبط آخر، ويغير مطارات، ظل مطاردا من فكرة الخوف التي لا تغادره. نام هاربا من التفكير، مرددا قول أمه: نوم الظالم عبادة. لم يكن الهروب بالنوم يعجب «وليد»، ليهمس: الرجال لا يهربون،

الرجال يقاومون. لم يفعل «وليد» بهذه النصائح، فضَّل الهروب، وتاه خلف أحلامه التي بحث عنها، أصبح لا يثق بنصائح «وليد». ابتعد عمَّن حوله بغفوة تمتلئ بالحنين لـ«خالد»، صاحب الجنية، ولـ«وليد» الذي علمه كيف يحلق في الفضاء الرحب لا يخاف شرك المجرمين. استيقظ من النوم بعد فترة قصيرة. فتح كتابه باحثا عن عالم يحتويه بعد أن لفظته مدينته بقسوة، ولم يستطع أن يحقق ولو جزءا بسيطا، مع غربته ظل متمسكا بوصايا أبيه؛ فالناس لا يعترفون إلا بالذين يعتزون بأنفسهم، مهما أعطتهم الدنيا ظهرها، ولا يعترفون بهؤلاء الذين يقدمون تنازلات من أجل لقمة العيش. كانت الطائرة مزعجة، دقائق مرت ليذهب في النوم. شعر بأنامل تلامس كتفه في رفق؛ ليستيقظ ناظرا في عينيها ومسرعا:

- مساء الخير.

- مساء الخير.

- أزعجتك؟

ببسمة رقيقة:

- بالفعل.

ابتسم وهو يبحث عن نفسه، لم يهتم بالمقاعد يوما، اليوم يراه مختلفا؛ لأن أمله أصبح أكبر من أن يتخيل؛ فقد شعر بثراء في روحه وعقله. تلعثمت حروفه وغابت كل أبجدياته بعد أن استدارت تاركة خيوط دلالها تلف تفكيره، وراسمة على قسماته علامات الدهشة من نومه على كتفها.

كسر حاجز الصمت بينهما قائلا:

- الجو بارد؟

- بالفعل.

كانت إجابتها كلمة واحدة قاطعة.

شعر أنها لا ترغب في الحديث، لكن رائحة عطرها هزته بعنف وسرت بدمائه. عاد بظهره للوراء منتظرا هبوط الطائرة على مدرج مشاعره التي دائما ما تضطرب إذا التقت عيني امرأة، ليشعر أنه كصغير يحتمي في جلباب أمه حتى لا يراه أحد.

كانت صامتة تنظر من نافذتها مدركة أن المرأة تخترق الرجل بصمتها، وتقتله بالعشق إذا تكلمت، خاصة هؤلاء السابحين خلف أحلامهم.

كان هو في خضم المسافات والخوف من أن يصنع حاجزا. رفع رأسه مقتحما حركة أناملها التي تتحرك كأنها تعزف على آلة موسيقية قائلا:

- أتحبين الموسيقى؟

هزت رأسها بابتسامة، ليعود الصمت بينهما، والاندهاش من رجل لا يعرف أن المرأة تحب الموسيقى وتدخلها في حالة من حالات العشق؛ لتنسى ما حولها، وتتوحد بها في عالم خاص، متذكرة أوتار رجل تحبه وتراقصه بعيدا عن ألم الحياة. رجل يعرف كيف يروض جماح الخيل! ينفذ لقلبها، ويمتلك كل شيء بعيدا عن جسدها. لا ينكر عقلها، هي امرأة مختلفة لا تقبل أن تكون عابرة طريق..

ببسمة ساخرة من نفسه لأنه يحلم، ويعيش مشاعر تهزه مع لسان مقيد لا ينطق متعودا على الصمت في اللحظات الفاصلة. هذه المرة الأمر مختلف، هكذا حدثته نفسه بعد أن فاح عطرها، وأصبح أكثر طغيانا على ذاته.

كانت «ماريا» تمر على مشاعره كسحابة ممطرة حطت حملها، ثم عاودت الرحيل بعد أن بعثت في قلبه معنى الحب والحياة الجميلة، لم يتعود أن تكون عواطفه كمعلن كاذب.

استيقظ طالبا فنجانا من القهوة ناظرا لها.

أشارت بالنفي، وعادت لصمتها.

عاد لفنجانه، قلب السكر وسرح مع صوت الملعقة كما كان يفعل في منتصف الليالي الباردة، لا أحد معه، ليلتحف بغطاء ذكرياته التي تحميه من صقيع الوحدة.

ابتسمت شاعرة بما يعتريه، وبنصف ضحكة انتصار لامرأة امتلكت رجلاً دون أن تتكلم، دون أن تتحرك حروفها.. ماذا لو تكلمت؟ ماذا لو أصبح ما بينهما هو الحب؟

فالحب عندها حياة، وبداية لا نهاية لها. الحب عندها ليس ارتماء في حضن من نحب، ولا أصوات الهمهمة، ولا رعشة أنامل، ولا السؤال الحائر عن الغد وما فيه، لكنه الوفاء لمن نحب، الإخلاص مهما باعدت الأيام، استحضاره أمامنا أينما نخطو، وأينما نحل، واصطحابه في كل لحظة وفي كل وقت، الحب ألا ترى أحدا غيره، ولا تستعذب صوتا غير صوته، ولا تشم رائحة أجمل من رائحته.. الحب رضا بأقل القليل، والاستمتاع بالنظر في عينيه دون الإهمال في واجبك، هذا هو الحب الذي تبحث عنه، فهل ستجده معه؟

حركت خاتمها الذي اشترته في آخر رحلة شاعرة بالراحة والسعادة وهي تنظر له. قالت لها البائعة في ذاك اليوم:

- إن الأحجار تعكس ما فيها من بريق على قلوبنا وتحتلنا أحيانا؛ لأنها تشعر بنا وتتحول لتكون جزءا منا يمدنا ببريقها الكامن فيها وتجعلنا أسرى لها دون أن نشعر.

اختارت خاتمين، واحدا بلون السماء لتحلق في فضاء الحلم بعيدا عن الوجع، والآخر بلون الشجر، ثم سألت ضاحكة:

- ماذا سيعكسان لقلبي؟

كانت البائعة المبتسمة دائما، والقارئة للقلوب، أسرع مما تتخيل؛ فقد عهدت مثل هذا الأسئلة لتقول:

- السماوي سمو ونقاء، ستسمو نفسك على كل الصغائر، وسترقى أفكارك وأحلامك، وسيصفو قلبك؛ لتحبي كل البشر.

ثم صمتت قائلة:

- لتكوني رمزا للحب في زمن ضاع فيه الحب، وتنهمر محبتك لتروي أرض من حولك، وتزهر فيها الياسمين، ستكونين مصدر العطاء والجمال.

كانت لغتها الإنجليزية أشبه بالشعر وهي تشرح لها..

ضحكت لأن الكلام غازل شيئا في قلبها، لتسأل عن الثاني الملون بلون الطبيعة، لم تكن البائعة في انتظار حركة البدء، قالت:

- الأخضر يمنح في غير انتظار، يدفعك لمعانقة الحياة، هو لون الطبيعة الأم، والشاحب منه يحتاج لمزيد من الحب لتعود له الحياة. يزهر مع الربيع، كوني له يكن لك.

ذهبت ناحية خاتم أحمر قانٍ، ونظرت له وكأنها تحاول استجداء البائعة أن تتحدث عنه.

قالت البائعة:

- سيدفعك إلى عشق ملتهب، وإلى حب ناري، ستظلين في أسره ولن تستطيعي الفرار منه مهما باعدت بينكما الأيام.. أتحبين؟

- لا، لست حمل الحب الناري، سيجعلني أحترق، فقد مضى عهد الاحتراق.

قالت لها البائعة:

- لكنك ما زلت جميلة ورائعة.

تمنت لو اشترت هذا الخاتم الدموي في ذاك اليوم، كي يعكس ما

فيه من لهيب على قلبها المتوقد بالحب لمن يستحق، وتراه الآن بالجوار. سبحت مع خاتمها، ومع السماء المحاطة حولها، كجزيرة من القطن الأبيض النقي الذي يمنح الراحة والابتسامة. كانت تعرف أنه الوهم اللذيذ المرتبط بالخاتم الذي يجعلنا نتوهم بأننا قادرون على فك شفرات ألغاز الحب، والحقيقة أننا غير قادرين على فك لغز واحد من المجهول فيه.

راود نفسه أن يتكلم معها، بدأت حروفه تخرج، قرر أن يفض بكارة التردد، ويبدأ بحديثه:

- أتعملين بدبي؟

كان سؤاله مرتعشا..

- لا.

- أين؟

- بمصر.

- ودبي؟

- عمل سريع.

- وبعدها؟

- إلى مصر.. وأنت؟

- الكويت، زيارة لمدة يومين.

- ولن تعود لمصر؟

- في القريب إن شاء الله.

ترك الصمت يعلن عن أمر لا يفسر، ولا يحتاج لتفسير، أجمل مشاعرنا تلك التي لا تفسرها الكلمات، لا تفسرها غير النظرات، تلك التي بحثت عن مكان تستريح به.

قام من مكانه تاركا إياها بين الخوف والرجاء، وبخطواته المنسابة،

وبنظراته التي استراحت على وجه عرفه منذ سنوات، وقف أمامه، استرجع اللحظة التي التقاه فيها في حجز المطار مطاردا ككثير من أبناء الوطن دون ذنب، أقسم له وهو يرتعد من الخوف إنه جاء إلى هذا المكان لا يعرف ما سبب وجوده، غير أنهم قالوا:

- تشابه أسماء.

وما زال يئن من هذا التشابه كارها اسمه واليوم الذي وُلد فيه، ولولا بسمة تغطي قسماته مستقبلة غباوة الآخرين وسخافاتهم، والعبور عليها لغد يخلصه من كل هؤلاء؛ لمات كمدا من حماقة شارب لا يعرف معنى الوطن، هناك التقيا، وافترقا بعد يومين خلف قضبان صُنعت للأبرياء، منذ عشر سنوات أو أكثر، خرجا معا والجوع ينهش بطنهما، صمم أن يعزمه على أكلة ترم عظمه، أكل بنهم، وأحس بأنه عاد للحياة مرة أخرى، لكن ككل شيء حلو ضاع وسط الكم الهائل من المشكلات. سلم وتبادل الأرقام معه ومضى. نظر في المرآة جيدا، حاول أن يستيقظ مما هو فيه، لكنه خرج مصمما أن يكمل طريقه، عاد لها والابتسامة تكسو قسماته.

ضحكت وهي تسأله عن سر فرحته..

بابتسامة وهزة رأس تخبرها أنها هي.

- أنا؟!

ردت باستغراب أكثر.

- نعم أنت.

كان ينظر في عينيها يحاول أن يسجنها بين أهدابه، ويعلن لها عن إعجابه بها. لمست ذلك فتدثرت بالصمت منتظرة القادم وموافقة، ولو من باب منح الفرصة، لقلبها الذي لم يذُق طعم الحب يوما. كان صوت الكابتن

يعلن عن قرب هبوط الطائرة بمطار دبي. استعد كلاهما لفصل جديد من فصول الحياة الذي يحجز ويقرب في آن واحد. نظر لها وهي تربط الحزام استعدادا لمغادرة رجل أشبه بمن يرقص على حبل في الهواء، ولا يستطيع أن يحدد خطواته، أو أن يقتحم قلب امرأة. بدأ الركاب في النزول، استعد لأن يغادر الطائرة، ومعه ما نفذ إلى قلبه، ذلك الذي يرتعش ويرتجف مع كل جميلة، لكنه لا يقدر على أن يتقدم خطوة واحدة، أو أن ينتصر لمشاعره أمام امرأة هزت كيانه بصمتها، امرأة مختلفة عن كل الأسرار التي حكاها للنيل. نزلا من مصعد الطائرة مقدما إياها، لتعبر على جمرات قلب يشتاق لحياة مختلفة تعيد اتزان السعادة عنده. أنهيا الأوراق معا وانتظرا الحقائب معا، حمل حقيبتها ووضعها مع حقيبته، كانت صامتة لا تتحدث؛ فهي وافقت أن تمنحه فرصة..

سألها:

- إلى أين؟

- فندق حياة!

كانت متفائلة بالاسم.. أكملت:

- وأنت؟

- حتى الآن لا أعرف..

ابتسمت دون أن تسأله.

- ربما يكون.. أو.. لا أعرف حتى الآن..

- لماذا؟

- لا أعرف حتى الآن، صديقي سينتظرني، رتب كل شيء، ولكن يمكن أن يتغير كل شيء.

أخرجت سيجارة وهزت رأسها:

- أتسمح لي؟

هز رأسه بالإيجاب؛ ليسأل:

- هل توجد امرأة لا تدخن؟

في الوقت نفسه اندهشت لعدم إخراجه ما يشعل سيجارتها، مضت بجواره وتركت دخانها يحيطه، كان يتحدى أفكاره القديمة مختلسا النظر لها في سرعة، ثم يعود.

رسم دخانها حالة الضباب التي تعيشها، منذ كانت في العشرين من عمرها، لم ترَ لحظة حب واحدة، ولم ترتمِ على صدر رجل يضمها ويهدهد ألمها ويخرجها من وجع إرهاقها. رفعت يدها على شعرها، تمنت لو مد القمر ساعديه ونامت عليهما؛ لتستريح من عبء السنوات، تمنت لو غافلت الزمن للحظات، ودق الحب أبوابها بعنف، غاسلة قلبها من كل ما مضى، لو كتبت وهي عارية حتى من جلدها، لو شربت من نخب الخسائر الماضية، وطعنت غدرهم، لو مارست بعضا من الطقوس العشقية التي قرأت عنها..

عاودت المسير، تاركة علامات الدهشة، والاستغراب من نفسها، ومن فصول أحاسيسها التي لا تعرف لها اتجاها، وتقودها نحو الحياة، أو نحو الهلاك بلا هوادة أو رحمة. الطريق للخروج من البوابة لم يكن قصيرا، حمل أمنية بأن يظلا معا، وأن يهمسا بكلام المحبين، ويتصارحا بالحب، وأن ينزوي الخوف، ويهرب من تأنيب الضمير لخطأ لا يعرفه إلا على أوراقه. كانت تتمنى أن يقترب راجية أن يكون بطلها المنتصر، ويمتلك قلبها، لا تعرف لماذا وكيف ومتى، لكن ربما في لحظة ما نحتاج من يهز جذع قلبنا كي تتساقط عليه محبتنا الضائعة وسط زحام الوجوه المستعارة، وسط القيود والتقاليد التي لا تعرف قوتها إلا على

المرأة الضعيفة. لعنت الأعراف التي لا تساوي بين الرجل والمرأة. لعنت كل الظروف التي لم تجعلها تنعم بيد تحتويها، بضمة حنون منذ شعرت بصولات قلبها، وازدان عودها مستفيقا على حبل الرغبة والغريزة، فازداد جمالا ورقة، كانت خطواتها أكثر حركة للأمام، لكنها كانت تشعر في الوقت نفسه أنها تتشبث بالماضي. قطع تفكيرهما صوت مندوب الفندق وهو ينادي اسمها، ذهبت ناحية المندوب، تحرك معها وهو يقدم خطوة ويرجع أخرى، نظرت له سائلة:

- ماذا بك؟

قال لها وهو يخرج زفيرا متراكما:

- كنت أعتقد أن خطواتي تشبهني، اليوم فقط اكتشفت أنها تخونني، وتعود للوراء.

هزت رأسها وأكملت السير بخطوات أكثر ثقة فرحة بأنه يحاول أن يكون معها وأنه يقترب أكثر وأنها ملكت قلبه، حتى لو كانت البداية التي انتظرتها كثيرا؛ لتنثر أنوثتها على من يستحق، ومن يحارب كل شيء من أجلها لتكون بطلته في واقع رُسم في لحظة غفل فيها الزمن، وبسطت يد «كيوبيد»، لتنام عليها في دعة وسلام.

قرر ألا يتركها تضيع، تحدث مع مندوب الفندق، اتجه ناحية البوابة الخارجية وخلفه حقيبته وبجواره امرأة أعادت له الحياة.. لأول مرة قاوم شعور الخوف واندفع إلى من يحب.

غمرتها السعادة من رجل تمسَّك أن يكون بالجوار، حاول وعرَّض نفسه لموقف يمكن أن يكون سخيفا، لكنه كان على استعداد لذلك، لم يتركها كعابرة عرفها. كانت مندهشة مما يحدث. شقت السيارة الزحام مشكِّلة بداية لحياة تنتظرها منذ سنوات مضت. تركت روحها تتماوج

كماء النهر قبل الفيضان حاملة الفوضى والإثارة التي لم تعرفها يوما، هي لم تعرف إلا الصوت الأجش الناهر دائما، لم يعرف أن المرأة لا تحتاج من ينهر. المرأة تحتاج لصوت رقيق يهزها، يتملكها، يبحر في قلبها، يشعرها بكيانها، تحتاج لإنسان، ذاك العميق جدًا حد البحر، العالي جدًا حد السماء، الصافي حد الماء العذب، الرقيق حد النسمة الباردة في أيام الصيف، تعطيه شهدها إذا منح قلبها قليلا من الحب، هي كالأرض التي لا تنبت إلا زهور الحياة، وبها تكتمل فصول الخلق، فيزداد الكون جمالا، وتكتمل منظومته، هي تريد رجلاً ينام بين جفونها ويملك صك قلبها، موافقة أن يستعبدها الحب. اتجهت لخاتمها الماسي وهي تحركه برفق، فتشت عن علاء الدين؛ ليخرج ويحقق كل أمانيها، وأولاها أن يحبها هذا الرجل الموجود بالجوار حبا يستحق أن تبيع العالم من أجله.

نظر لها مترددا في حديثه متعجبا من المبالغة في صمته وهامسا:

- المبالغة في تكتم الإعجاب تضر به، كما أن المبالغة في الإفصاح تقتله.

ليكمل:

- نبالغ في صمت، ونتحدث في صمت، ونتألم في صمت، ونمشي بجوار الحائط في صمت، تعوَّدنا حتى على قول لا بصمت، فهل يصبح حبي من طرف واحد وأن أتحمل معاناته ومشقته؟ هل يكفيني القليل؛ فيمنحني ابتسامة رضا كالعطشان في الصحراء يكفيه القليل من الماء بعد أن يتلاعب به السراب؟

كانت عيناه مع الرذاذ المنساب الذي يشكل صورة لـ«وليد»، ليشجعه أكثر وأكثر أن يتقدم ويكسر حواجز الخوف ويعبرها جميعا. «وليد» هو سنده حتى لو غضب منه في لحظات.

تشجع وقال لها:

- أتعرفين؟

بغنج الأنثى إذا تدللت واضعة أصابعها على فمها، وبنصف ضحكة ناظرة له وقائلة:

- نعم أعرف.

كانت حبات العرق تنزف من جبينه في حالة دهشة من لسانه الذي توقف عن الحديث. صمت كل منهما، أعادت رأسها للوراء وأخذت تهمس بكلمات دون أن ينطق لسانها قائلة:

- حلمت برجل مثله يعيش الحب ويتمناه، يعيش الرومانسية بعد أن تقطعت أوصالها، وغابت خلف الماديات. تريد أن ترى الحياة؛ لترى عالما لم تعشه إلا مع أبطاله، فتجسدتهم، وحسدتهم على ما هم فيه.

كان صوتها مسموعا موجهة له الكلام لتكمل وهي تنظر للرذاذ المتساقط. نظر لها مندهشا من نفسه فكم من أحلام بأعماقنا فوضوية ترفض التريث والترتيب، لكنها عندما تجد محفزا تندفع بشكل متسلسل ضاربة جذورها في عمق الترتيب والتنميق..

لم تتوقف عن الكلام، هي تنظر من النافذة موجهة كلاما أكثر وجعا:

- كم تتألم المرأة أن تخرج مشاعرها لرجل لا يستحق. كم تتألم أن تجد نفسها كسلة يقذف الرجل فيها نفاياته دون اهتمام، وأن ينام ممددا على الفراش تاركا الألم يعصرها دون أي شعور، أتراه رجلاً من يفعل ذلك، أم أنه...؟

يتدخل السائق ليقطع صمتهما:

- معذرة، الطريق مزدحم.

لم يلتفت للسائق ليعيش لحظة انتصار على نفسه، قربته ومنحته

الحياة بعد أن قبع خلف جدران عزلته، فكر في القادم بعد عبوره كل الفواصل التي وضعتها سنوات عمره الماضية.. كان شعوره لا يخلو من اختلاس نظرة لعينيها الذاهبتين تعانقان حبات المطر، ولشعرها المنساب كموج هادر، مع قسمات متلاقية ومتناغمة بشكل مذهل، وابتسامتها تشجعه بأن يقتحم معالمها، ويغوص في أعماقها أكثر. الطريق كان محاطا بأشجار النخيل المختلف عن نخيلهم المغروس على جسور قريته، تلك التي لا يصعدها إلا المغامرون الصاعدون دون خوف، كانت تحتاج للسواعد القوية التي تقذف بقوة كي تتساقط رطبها. آخر مرة فعلها وتسلقها كانت مع «جرجس» قبل أن يهاجر، تراهنا معا، كانت «ماريا» ترقبهما، شجعت «جرجس» في الظاهر متمنية من كل قلبها فوز «سالم». فاز «جرجس» بالمباراة، وحصد الكثير من الرطب، أهداها لـ«سالم» كي يفطر عليها في تلك الأيام الحارة برمضان. اشتم عبير الذكريات المحفورة في داخله، عاش مع «جرجس» و«وليد» و«ماريا» وهو بجوار امرأة حركت ما تمناه يوما، ليترك حبال الحب تعقد عقدها.

أمس، تأمل نفسه في المرآة.. تشكلت لديه حلقات الزمن الضائع. دائما ما حاول الهروب من هذا الشعور القاتل والمؤلم في لحظة تخيب مشاعره، لم يتذكر في هذه اللحظات إلا «وليد» يوم علمه أن المرأة الصامتة مدهشة.. حنينه المفعم لـ«وليد» الذي أخبره عن المرأة الكثير، وأدهشه بوصفه لتلك المرأة التي يبحث عنها في آخر رسالة جاءته منذ شهر، حدثه قائلا:

- عثرت على امرأة تشبهني كثيرًا، امرأة كنت أحلم بها قبل أن أراها، تشعر بي قبل أن أتكلم، تبتسم إذا رأتني، أفرح بها، وتفرح بي. يوما وأنا في طريقي للعمل بعربة المترو جلست بجواري، طويلة، جذابة، رقيقة جدا، لا تعرف اليأس، كل شيء عندها بسيط، مؤمنة بأن الحياة خُلقت في أيام.

أكد «وليد» أنه أحبها، وبطريقة صحيحة اقترب أن يكون أبا، عرضت عليه أن يكون صديقا، رفض، ما زال يحتفظ بدينه الذي يحرم ذلك، وأيضا دينها يحرم ذلك.. أسعده أن «وليد» ما زال يحتفظ بهذه التعاليم. قال إنه يشعر بالفخر أنه استطاع خلال وقت بسيط أن يبلغ منصبا متقدما على كل من حوله. أكد أنه ما زال يحتفظ بالعهد، بل ويصرخ به حتى لا ينساه، فكثيرا نطلق ما يجيش بصدورنا حالة شعورنا بضياعه أمام أعيننا، أو أن يكون على مقربة من الضياع، فنحاول جاهدين أن نصرخ بآخر ما كان بيننا من عهد ونحن نعتصر من الوجع. أكد أنه مشدود بين أمرين، بين أناس تركوا تاريخهم على قسماته، وبين غد رأى فيه إشراقة شمس تبدد كل الغيم المتراكم من سنوات الخوف، وأنه في كل مرة يشد فيها حزام الصبر لفراق من أحب يشعر بالألم. قال إنه يتمتم الصمت قصيدة شعر يحاول بها أن ينسى، كأنه ما زال على أهداب العتاب، ينتظر آخر ما كان ليشكو له الفراق الذي دام. في كل مرة يحتاج أن يأخذ قرارا يتوحد مع «وليد» الذي علَّمه أشياء كثيرة، لم يكن «وليد» وحده، كانت معه «ماريا» تطرق على بابه الخلفي من الذاكرة بأنها حاضرة. «ماريا» دخلت الدير، وتخلت عن مباهج الحياة بعد أن ظنت كل الظن أنه لا لقاء بينها وبينه، في حديثه الصامت مع «ماريا» رن هاتفه برنة تحمل خصوصية، فلكل منا نغمته التي تفصله عن العالم، وترميه إلى عالم آخر يحبه، ويتمنى أن يعيشه مع صاحب تلك النغمة، أو تنبه بقادم لا يطاق؛ فتحذر من مجهول يقتحمك، في زمن أنت مراقب بكل شيء، حتى في مكالمتك، لا تعتبر بعيدا عن أحد. حمل هاتفه، ابتعد عنها حتى لا تلتقي عيناه عينيها؛ فتكشف سرا يحاول أن يخفيه، ويبعد نفسه عن تلك النظرات التي تفضحه، وهو لم يفعل شيئا في حياته، غير نظرات أو أحلام ضاجعها بحروفه، تعمد

الابتعاد محتفظا بسر مع صوته الهامس. نظر باعتذار، وبحركة كتفه للأعلى هروبا من حديث صامت، وبنظرات وجهت له، حاول أن ينفي، لكنها، بفضول المرأة غير المبالية، هزت كتفها وهي مبتسمة.. استطاعت أن تجعله يهرب من مغامراته، حتى لو كانت غير حقيقية.. كلمة واحدة قالتها وهي ناظرة من النافذة للرذاذ المتساقط:

- لا عليك!

كانت متقبلة الأحداث الفرحة برباطة جأش، وعدم الاندفاع خلف مشاعر قد تكون غير حقيقية، فتندم بعدها. بنغمة تختلف عن السابقة، حاول أن يبرئ نفسه من تهمة وُجهت إليه عن طريقه، مؤكدا أن الغباء هو الذي يدفع للخسارة في معركة يُخيَّل لمن يخوضها أنه خارج حلباتها.

رد على هاتفه:

- أهلا.

- أين أنت؟

كانت كلمات صديقه تحمل شوقا.

- هنا!

كانت إجابته دون تحديد..

- بالمطار؟

- لقد خرجت.

- إلى أين؟

- الفندق.

- لماذا؟

- لا شيء، سأحكي لك..

- طيب لا تغلق هاتفك..

- سأتصل بك، مع السلامة.

كلماته كمن يريد أن يعبر من مطب وضع نفسه فيه.. عند نهاية حديثه انقشع الزحام، وانحسر المطر الذي غسلهما من أحزانهما. وصلا بعد زمن ليس بالقصير، كان كفيلا بأن يقربهما. توقفت السيارة، ونزلا معا..

أفكاره الحالمة ستجعله أكثر قربا منها، ويحتفل معها بميلاد حب تمناه، هو لا يريد أن يخرج كالفطيم الذي رجع لصدر أمه؛ لأنهم تعجلوا فطامه. خروجه هذه المرة يشبه اللحظة التي انعتق فيها من بوابة السجن فرحا بأنه ما زال حيا، يومها مشى في الشمس، لم يبحث عن الظل، كان يريد أن يعم النور جسده، ويستيقظ على الحرية على الرغم من أنها مشروطة بعد خروجه من تلك العتبة، أحس بالانعتاق من ظلام السجن، الآن يريد أن يحطم ظلام مشاعره مع الخطوات المعدودة التي تقوده لأكبر مغامرة في حياته يريد أن يكسر فيها كل الحواجز، ويكسر توهمه بنظرات الآخرين. توقف أمام موظفات الاستقبال مترددا لمن يذهب. حالة تصيبه كتلك التي حدثت له أول مرة نزل فيها القاهرة، كان مبهورا وخائفا، معجبا وكارها. كل هذه المشاعر في وقت واحد؛ فالمشاعر المتباينة في أوقات كثيرة حالة صحية، كأمنيتك بأن تتوقف عقارب الساعة تماما إذا كنت مع من تحب لوقت محدد؛ لذلك في كل مرة ينزل مكانا جديدا تحدث له حالة الاندهاش. طرد أفكاره التي تسكنه، وبخطوات غير مترددة نحو أول مبتسمة اتجه لها، مؤكدا أن الانطباع الأول له أثره، وأن البسمة الجميلة تمنحك الحياة وتدفعك نحو اقتناصها حتى لو كانت غير حقيقية.

توجه لها قائلا:

- مساء الخير.

- مساء الخير سيدي.

مع ابتسامة تربعت على شفتيها.

- حجرة لثلاث ليال.

- فردي أم زوجي؟

ابتسم ضاحكا:

- فردي، ليس معي إلا حقيبتي ومشاعري المحاطة بكثير من القلق.

لم تفهم ماذا يقول ولم تهتم.. تعرف مساء الخير من تعودها وتقولها تندرا.

أشارت للخادم، حمل الحقيبة متجها إلى الحجرة.

استطاع أن يعبر خوفه، وينجح في الاختبار الأول متخطيا أزمته مع قلبه. كانت قدماه ثابتتين وهما تعدوان نحو حجرته وتتحركان وحدهما تاركتين عقله الذي قيدهما سنوات من العمر، لأول مرة تُفك قيود خلف قيود وتنهار سدود من فيض مشاعره التي لا تتوقف نتيجة سيول متعددة من رغبة حقيقية نحو الحياة. في اللحظة نفسها شعرت بنجاح التغلب على خوفها من الارتباط والحب حتى لا تفقد من تحب، بادلته بابتسامة. كان صغيرها دائما أمامها وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة ويودعها وداعه الأخير، ما جعلها تتمنى في لحظة بحثها عن إنسان يشعر بها يكون هو أيضا يبحث عنها، فتلاقي الرغبات في نظرها يجعل الأمر المألوف شيئا خارقا فوق العادة، وأعظمه يكون في لقاء حب، عندما تندفع المشاعر لتحيط الجسد؛ فتحيله جسدا ناريا يخترق كل الحواجز، ويترك نحته على كل جزء من جسد الرغبة، ومنتهيا بقبلة رضا تحمل سعادة اللقاء. تحركا إلى المصعد، ومعه سحرها الذي يأخذه، وعبقها يشده؛ فالجميلة من قريب مدهشة حد الصمت من بعيد!

كانت سعيدة لقربها من رجل رسم مشاعر الكثيرين بقلمه، وتمنته الكثيرات وهن يسبحن في بحار كلماته، وها هو يتعلق بها، ويمشي بجوارها، تاركا كل حياته بجانبه. توقف المصعد في الدور السابع، ونزلا معا وبخطوات واحدة على البساط الأحمر الذي يمتد، ويحمل رغبات بلون البساط. توقفا أمام حجرة تحمل نفس رقم الدور، تركها وهي تحاول أن تقيده بآخر نظراتها؛ فأجمل لحظات العشق هي الصمت في حضرة العشق. هذه محطة من محطات حياته، ربما تأخذه لعالم جميل، أو إلى عالم مخيف، أو لطريق لا عودة منه، هكذا كان خوفه الذي اعتراه سنوات عمره الماضية، وجعله يضع العراقيل، كي لا يتقدم خطوة واحدة تخلف فراقا مزروعا بالقلق والتعب والمشقة. استدار متعلقا بها، ومستغربا لكل شيء، وغير خائف من فراق لا يحبه، وظل معه وهو راحل من مطار لمطار، مصبرا نفسه بأن من الفراق تولد الحياة. لم يشعر بالغضب ولم يخَف من وداع مؤقت لأنه شعر بأمر يسكنه يجعله معتقدا أن أجمل ما في قصص الحب هو الإحساس بالخوف.. في ممر واسع بقناديله المضيئة، ووسط يوم حافل وذكريات مترامية الأطراف، وبجواره خطوات الخادم بوقعها وحلمها أن تشتم عبير دراهم. فتح الخادم باب الحجرة مع نظرات تحمل الرجاء؛ فالرغبة الحقيقية تكمن في العين. كانت شمس أفريقيا ساطعة على جبينه ناشرة ألقها على قسماته. أخرج من جيبه بعضا من الدراهم، وأغلق خلفه الباب؛ ليقف متعجبا من شريط حمل تطورا في شخصيته، أصبح قادرا على اتخاذ موقف واحد دون الخوف؛ فالحب جعله يحيل الخوف لجرأة والشتات لتلاقٍ، حتى لو مع النفس التي ظلت وحيدة عمرا بأكمله. رجع قليلا، جلس على الفراش رافعا قدميه للأمام لاعبا لعبة التوازن التي تخلصه من هموم كثيرة، تعلم أن الحركات

غير الإرادية تعيد اتزان الجسد، وتعيد التفكير للعقل مبعدا سيطرة القلب جانبا حتى يستطيع أخذ القرار الصحيح. طالت لعبته وهو يطرد، في زفير، خوفه ويقتنص مع الشهيق حريته التي يتمناها. أنزل قدميه، اتجه ناحية النافذة المطلة على الخليج المغتسل فيه والمنسلخ من همومه، الراقد في صمت المتأوه دون أن يشعر به أحد، تمنى لو انفجر يوما وثار، عنف وفاض موجه، أخرج لؤلؤه المكنون. عاد للعبة التوازنات مرة أخرى ليرتب أفكاره ويتوقف أمام مشاعره، كان عليه أن يستعد لفصل ينتصر فيه على كل الفواصل والحواجز التي صنعتها الأيام، وأصبحت كالسد المنيع الذي لا يستطيع عبوره، إلا بتفجير الكثير من جبال الذكريات، ليصل إلى الشاطئ الآخر تاركا ما يوقفه. زاغت عيناه قليلا، غاب خلف كلمات السائق الغريبة عن الحرية والعدالة والمساواة، لم يألف تلك الكلمات على لسان الناس من قبل؛ فهي كتراتيل الصباح، لا يفقهها إلا القليل من البشر المستعدين للتضحية من أجلها، هي الكلمات نفسها التي سمعها من «وليد» و«جرجس». تذكر «ماريا»، فتح حاسوبه يفتش عنها، لم يجد شيئا، لكنه كان يشتاق لأن يرى «ماريا» بجواره في تلك اللحظات، فتح رسالة قديمة ليعيش معها ويشركها في لحظاته؛ فهي الحب القابع الذي يهدهده كلما عاقبته الوحدة، وقف وكأنه ينظر في عينيها، يرسم بأنامله على ظهرها اشتياقه وهي تردد له كلماتها المشهورة التي قالتها من أجله:

- يا سيد الصوت الرخيم
متى تعود؟
كي تحلق في قلبي
وتطير
كي تعاود نقش كلمات الحب

على جدرانه
وتسافر بين أوردتي
بلا شراع
تدفعك أمواجي نحو الأعمق
يا سيد الصوت الحنون
متى تجتاز لحظة عصيبة
لفراق لم يكن بإرادتنا
وتعبر حاجز الخوف اللعين؟
يا سيدي أنا في انتظارك..

عاد لرسالتها بعد أن راقصها وبصوت مرتفع كأنه يحفظ أحد أسفارها:

- أيها السالم القابع في قلبي..

وحدك يا «سالم» من أسجن فيه بعد أن تحررت من الدنيا، أصبحت أشعر بالأمان أكثر من أي وقت مضى. هناك أمر واحد لم أتخلص منه، هو حبك. ما أستغربه وأقف أمامه حائرة كيف بنبتة خرجت في يوم ما وانقطع ماؤها تظل تكبر وتكبر حتى يسيطر ظلها على نفسي، بل وتثمر حتى أتذوق ثمرها كلما غبت في وحدتي؟! آه يا سالم القلب، لا توجد كلمات تعبر لك عن هذا الحب. بعد أن التحقت بالدير عرفت أن الحب الحقيقي لا يمكن أن يموت حتى لو جفت ينابيع الماء من حوله، فهو يقتات من دماء القلب. دماء القلب يا «سالم»، التي تجري فيها، وليس غيرك، أنت وحدك، أصبحت الوحيد الذي يمنحه التجدد والرغبة في الحياة. كل ذلك من أجل أن ألقاك خارج الدير مرة واحدة، نعم مرة واحدة فقط، مثلي ترتضي من الدنيا بالقليل حتى لو نظرة من بعيد، نظرة تلخص حبي

لك. التوجع يا «سالم» بين الموجعين أسى، عليك أن تتحلى بابتسامة زائفة وتترك براكين حزنك خامدة لا تنفجر، حتى لا تصيب حممك أناسا ليس لهم ذنب، وليست لديهم القدرة على تحمل الوجع. ما زلت أتذكر كلماتك التي تضحك بها على الأسى وأنت تغنيها وأرددها كلما شفني الوجع. كل صديقات الدير يعرفن أنك تحب صوت أجراس الكنائس في الصباح، حكيت لهم وأنت تنتظرني كل أحد كي نكمل الطريق معا دون كلام، نهمس بحروفنا ثم نبتسم، نوشوش الزرع الممتد، والأشجار من حولنا، كنا نحفظ براءة ما في قلوبنا. يعرفن أنك مسلم تحب دينك، وتحافظ عليه، ولا يمنعك من حبك للآخرين. أتذكر عندما قلت لي: الله يدعونا إلى المحبة والرحمة فكيف نقسو على أناس مثلنا؟ علمتني الحب والصفح، وعلمتني.. لا أعرف. غير أنني تمنيت أن ترى الناس هنا، هنا يا «سالم» استطاعوا أن يتغلبوا على مشقة الفرقة، لا يهمهم شكلك أو لونك أو دينك، ماذا لو العالم كله نفض أفكار العنصرية، وأصبح الجميع متحابين؟ لكن كما قال أبونا: حكمة الله في أرضه، كي يظل الخير واضحا، والشر أيضا واضحا. أتعرف أجمل ما يوجد هنا؟ أنهن لا يخفن من الحب، يحببن، يحببن من أجل الحب. «سالم» قلت لهم: إن المسيح عندكم مخلص الأمة من هذا القادم السافك أحلام الصغار المعيد الناس للكفر. عندما قلت لهن: إن نبيكم محمدًا هو من قال عن يسوع ذلك. ضحكن وقلن لي: وماذا قال أيضا؟ كن يسخرن مني، لكن من كثرة ما حكيت لهم عنك أحبتك الفتيات، حتى المربية التي تعلمنا جلسات الضمير، جلسة الضمير الوحيدة يا «سالم» تكون لك، وسؤال يُطرح دائما: هل خنت حبك؟ الحقيقة أنني في كل مرة أكتشف أنني أحبك أكثر من أي وقت مضى. في الدير فتيات تخلين عن الطمع وزاد الحياة، بحثن عن ملكوت

الرب، يزرعن الأرض، ويرسمن السماوات، يتطهرن بالتقرب للرب والروح القدس، أرواحهن وأجسادهن امتزجا معا. عندما تدق الساعة الرابعة نستيقظ جميعًا لنصلي صلاة تسبيحة الليل، نستمر ساعتين متعلقات بحديث الرب، مربوطات بخيط دقيق مع السماء، ثم نعود للخلوة في فترة صمت رباني، نحاكي الصمت فيرتد إلينا بحروف ضميرية، نغسل الظن في هذه الحياة ونرتفع للحياة الحقيقية، ثم تخرج كل واحدة لعمل يدوي. اخترت الرسم، وكثيرًا ما رسمت ملامحك حتى عندما أرسم نهرا أو أرسم بحرا. يضحكن لأن ملامحك ما زالت تغزوني، وتجعلني مرتبطة بهذه الحياة. في بداية التحاقي بالدير كنت تائهة أريد أن أعرف طريقي، كانت ملامحي كثمرة ذابلة قطفتها قسوة الحياة، بعدها أدركت أني لا بد أن أتحرر من قيود ومن خيوط لُفت حولي، لم أفعل يا «سالم» إلا بعد أن أصبحت وحيدة كنخلة ضلت واحتها ونبتت في صحراء شاسعة يراها فقط كل من ضل طريقه. أنت فقط من يملأ حياتي. ألا تعلم يا رجل الحكايات أني دائما أقف أمام النافذة وأتمتم بكلماتك؟ سأسمعها لك الآن:

- افرد يديك

عانق الريح

لا عواصف تستطيع

أن تزحزحك

أنت هنا

عانق السماء

انشر نورك

اجعله يسطع

لا تخف

فأنت بالقلوب..
افرد لكل
الشامتين الحاقدين
يديك
ومت كالموج
الحر
على الشطآن
وهو يعانق الرمل
ويرسم وحده
أحلام الصغار
أينما تكون
راقصني
على أصوات
الموسيقى
وغنِّ لي
بصوتك الشجي
وقل لي
ما الحب؟

نعم يا «سالم» ما الحب؟ هو كل ما حكيته لك.

انتهت إلى أنها مصممة على رؤيته مهما امتد العمر، وأن الأمل في الأفضل لا تعرفه إلا النفوس الطيبة المسامحة التي ترى سعادتها في سعادة الآخرين. علَّمته «ماريا» الحرية والحب، وعلَّمته أن الإيمان بالأمل في غد أفضل أجمل ما في الحياة. ظلت كلمات «ماريا» حافزا له كلما

جاءت منها رسالة. مدد جسده على فراشه مستدعيا كلمات السائق عن الثورة والحرية، نفض أفكاره الهدامة متذكرا للحاكم قدسيته.. هو ابن رع!! هو لا يخطئ، نحن فقط نرتكب الخطيئة؛ لأننا رضينا بقسمتنا، ورضينا بالعار. شعر بصداع رهيب تملكه وإحساس بارتفاع الضغط، أخذ يبحث عن الدواء في حقيبته.

صوت الهاتف يعلن أنه غاب عن الحياة لفترة طويلة من الزمن.

- مساء الجمال. قلت أطمئن على أيامنا الحلوة.

- بتسلم عليك.

قالها «سالم» ضاحكا..

- وأنا والله.

- هل تأمرني؟ لك أن تطلب، فقط تطلب.

- الحقيقة، أشكرك بكل ما تحمله الكلمة، فأنت نعم الصديق..

- ما زلت أحتفظ بطعم أكلتك بفمي تلك التي لم تذهب أبدا!!

قال ذلك، ثم ضحك..

- ما زالت في بطنك؟!

قالها «سالم» ثم ضحك.

- ألا تعرف أن لحظة تشعر فيها بأمان بعد خوف وشبع بعد جوع لا يمكن أن تنساها؟

- صدقت بالفعل، لا يمكن أن ننساها..

- هكذا كلما زادت النعمة تذكرت لحظات الحرمان.. حقا ألا تريد شيئا؟

شكره على السؤال.. ودعه مسرعا ناحية الحمام، نظر في ساعته، أدرك أن الوقت سرقه وهي بانتظاره..

وضع رأسه تحت الماء غاسلا ذكريات يوم طويل امتلأ بالغرابة والتطور في شخصيته، التي يعرف أنها لم تكن كذلك يوما ما، لم يمر بتجربة سابقة مثل هذه. حاول أن يرتدي ما يبتعد به عن حياة الياقات البيضاء، ليضحك على أصحابها هامسا:

- مساكين ورب الكعبة، يا لهم من مغفلين لا يعرفون كم يضحك عليهم الناس، وكم يصفونهم بالجنون، إذا ما رأوا واحدا منهم عابس الوجه، مشعث الرأس تاركا شعيراته توزعها الأيام.

ارتدى ملابسه الشبابية مرددا:

- ألست شابا في الأربعين؟

فتح الباب باحثا عمّن جاءت به إلى هنا، وأسجنته في هذه الحجرة خطواته مع مشاعره على هذا البساط بامتداد حلمه؛ فهو رجل الأحلام والورق، رجل المسافات بلا نهاية والدروب المتداخلة. مع كثير من الخجل الذي يحيطه، وجد أمامه امرأة ذات ملامح جريئة بعض الشيء، دون أن يتكلم ابتسمت، وتركته مع أوهامه وبقايا من عطرها؛ فالمرأة اللعوب تدرك نظرات الرجال وتفسر ما خلفها من رغبات. نظر للأرض، لم يستطع مقاومة نظراتها، لكنه تمنى لو ثار على حيائه وخجله ورضاه بالمقسوم، كي يعرف لون المغامرة مرة واحدة في حياته، توقف المصعد، بحث عن امرأة الطائرة.. التفت يمينا ويسارا خائفا أن تكون قد خرجت. أشارت له. توجه ناحيتها، كانت ببعد الجنوب عن الشمال، جمع كل أمنياته في آن واحد مقتربا منها، في مدخل المطعم الذي يقترب من البهو الكبير طاردته العطور الشرقية من مبخرة يقف أمامها الرجال أكثر من النساء. بجوار الشرفة جلست شاخصة خلف حلمها تراقبه؛ ليعيد لها حياتها التي فقدتها دون أن تشعر، سرحت قليلا وهو يتقدم إليها محطما كل

جدران العزلة.

لم يكن يعرف ماذا يقول، لكنه أكمل المسير مشعلا مصباح الحب بعد أن نضب زيته في قلبه، مد يده مسلما عليها. عاد لطفولة المراهقة مؤكدا أن رجل الأربعين يرى امرأة الأربعين كشاب العشرين يرى فتاة العشرين، أمام تلك الرعشة لم يملك إلا الصمت، خرجت الكلمات كاسرة تلك الحالة:

- ممكن؟

بضحكة طفولية، وعبثيه في الوقت نفسه:

- ممكن طبعا.

كانت رقتها.

- والله؟

- حقا، في انتظارك منذ عشرين دقيقة.

- وأنا في انتظارك منذ عمر طويل.

- أشكرك، هذا اعتراف صريح من رجل..

- نعم. لا أعرف ماذا يحدث.. أشعر بالانعتاق.

- هل أُعتقت الآن؟ ومن ماذا؟

- نعم.

كان يشعر أن صمتا يسيطر عليه؛ فهو يخافه؛ لأنه يعلم أن الصمت أنواع، فمنه ما يسرق، ومنه ما يفرق، ومنه ما يدهش إذا كان في عين من نحب.

بادلته إياه مختفية خلف وشاح الحياء.

تذكر عبارة كتبها يوما:

- إذا ارتدت حبيبتك ثوب الحياء، فارتدِ أنت ثوب الشجاعة وقدم لها زهرة حبك وعبير عمرك.

ليضحك سائلا:

- قلقة؟

لم تكن مستعدة للرد، لكنها قالت:

- هذا واقع أم...؟

تركت حروفا لم تنطق دليلا على ما تريد.

نظر في عينيها قائلا:

- كل حقيقة بدأت بحلم، بل كل الحقائق العظيمة حتى التحليق في الفضاء كان حلما، فلماذا لا يتحول حلمنا إلى حقيقة إذا كنا نملك أدوات التحليق؟

- ممكن!!

كلمة خرجت منها حملت هروبا من موقف تخافه، وتتردد في القدوم عليه؛ فهي تخاف أن يكسر قلبها، فالقلوب لا تقدر على الشرخ مرتين.

لم يكن متعجلا؛ فهو يعرف أن أصعب الأمور محاولة استجداء الكلمات من نفوس حية تخاف من القيود، ومن معتقدات موروثة. فالمرأة قيد كل شيء وليست حرة في الاختيار حتى لو كانت وحيدة. كان جوابه أكثر قدرة على زرع الأمل بعبارة واحدة قالها:

- ممكن، وممكن أن يتحول لواقع يحمل كل ما فيه.

- أعتقد أنه صعب، أعني... لا أستوعبه.

قالت وهي تفرك يديها.

- كثير مما لا نستوعبه يبقى أثره مروعا، ورائعا في الوقت نفسه، ويصيبنا بالدهشة لوقت طويل.

- مع أنني لا أتحدث مع أحد إلا وقد عرفته جيدا، ولا أجري وراء سراب، إلا أنه يظل الأمر عصيا على التقدير معك الآن.

قالت ثم ابتسمت.

يضحك وهو يقول:

- لذلك أحيانا نطلق لمشاعرنا الإبحار بلا أشرعة؛ لتكون مغامرة غير عادية تكلل بلذة الحب، ذلك الذي يعيدك للحياة ومعرفة ما فيها من روعة..

- صحيح.. هل تحب أن تعيش الآن هذه التجربة؟

- يمكن أن أتعلم على يديك تجربة أفضل منها، التجربة عندي الآن تعني الحياة.

- على يدي؟! ليتك اخترت أخرى، أنا امرأة عملية، أو فلتقُل تجارية أحسبها بالمكسب والخسارة، هكذا علمتني الأيام أن السراب قاتل ومدمر في كثير من الأحيان..

- معي لن يكون مدمرا.

هكذا نطقها دون تفكير وكأنه أصبح أمرا واقعا.

- الله.. والسبب أهي حالة حب وتجلٍّ أم حالة بالمطلق؟ أقصد المطلق أنها حالة تصيبك مع كل أنثى تراها.

- لا، هو أمر مختلف، دفعني أن أحطم كل شيء.

- أقصد، هل تصلح الحالة نفسها على الرغم من اختلاف الأشخاص؟

- حالتي؟

- نعم كأنك تكتب الآن! أقصد تعيش لحظة الحب!

عادت لصمتها من جديد.

- أشعر كأننا في مباراة ستنتهي قبل وقتها بانتصار مشاعرنا..

ضحكت ضاربة الهواء بيديها قائلة:

- لله درك!!

عادت لخاتمها، ورفعته ناحية شفتيها، كأنها تفضي له بكلمات،

تحكي له؛ لأنه لن يفضي بسرها لأحد. خاتمها كنيله الذي حمل أسراره ورماها في المصب، أو كخليجه الذي حوَّلها إلى حبات لؤلؤ تزينت بها جيد الغانيات الملهمات. في تلك اللحظة عاد لأسراره التي تحولت لحبات لؤلؤ، وتزينت بها النساء. ربما خاتمها سر من أسراره جاء ليكشفه، ضحك ثم وقف، ومد يده طالبا أن يرقص معها.

الخطوات مع الموسيقى أعطت إيقاعا مختلفا، اقترب منها أكثر. عادا للطاولة؛ ليشاهدا حبات المطر في صمت. لم يكن هناك مفر من حديثه المؤجل لينطق بصوت هامس:

- أليس عجيبا أنني لم أعرف من أنت حتى الآن؟

- بلى، عجيب جدا!

- «سالم».

- وهل يخفى القمر؟

ثم أطلقت ابتسامة.

- أشكرك!

- عفوا.. مريم.

- كم عمرك؟ غبي أنا. هل هناك رجل يسأل امرأة عن عمرها؟

- نعم، هل هناك رجل يسأل امرأة عن سنها؟

قالتها ضاحكة.

- الحقيقة لا، لكن ما المانع إذا كانت امرأة تشع جمالا مثلك، ويعبر وجهها عن سنها الحقيقية؟

- أتعرف أنك مقبول جدا؟

- إذًا لن أعيِّن معيدا في قلبك؟

- لا تخف، سأتوسط لك عنده، هو يعرف أنني أخاف عليه؛ لا يتحمل

كذبا أو خداعا، يحتاج حبات من الندى تعيده للحياة؛ مثل هذا الحجر أخضر لكنه شاحب، يحتاج للصدق، يكره الكذب والخداع، مختلف لا يجيد التصنع هو على طبيعته تماما، عامة عمري 36 سنة، وأنت؟

- أربعون عاما بين الترحال والغربة.

- العمر كله، ويا رب حتى المائة.

- بشرط أن تكوني معي.

- عرفت عمري، ماذا تريد أن تعرف أيضا؟

- كل شيء..

- هل ستتحمل حكايتي للنهاية؟

- هل يزعجك؟

- أتحب أن أبدأ من هنا، أم من هناك؟

لم تنتظر جوابه.. تنهدت ثم قالت:

- هناك حيث توقف الزمن عند كل شيء جميل. عند البدايات التي لا ننساها، وتشكلنا منها ونحن لا ندري. من بداية الحلم الذي جاورنا وأحاطنا. في شقة بحي الزمالك نشأت وحيدة لأبوين، لم يرغبا في الدنيا إلا بأمر واحد أن يجدا السعادة في عيني، نشأت ميسورة الحال، والحمد لله، أو ثرية بمعنى كلمة الثراء، كنت دلوعة أبي وأمي، كثيرًا ما سافرنا، علمني أبي الحياة وعلمني أن السعادة تكمن فيما تقدمه للآخر، أبي كان جميلا ورائعا، قرر أن ينسى سعادته في ذرية تحمل اسمه وترثه من أجل ألا يدخل الحزن على قلب أمي، بعد أن وُلدت أصيبت أمي بورم على الرحم علاجه كان بتر الرحم. أصبحت أمي عاقرا بعدي، تعرض أبي لضغوط من أمه. ظل أبي راضيًا بقدر الله، وماتت جدتي وهي حزينة، بعدها سافرنا لدبي. كان أبي مهندسا مدنيا وأمي خريجة آداب قسم

فلسفة، كانت تحب أن تفلسف الأمور، تهتم بالجمال، تقول:

- ما ينقصنا هو الجمال، الجمال فقط.

عندها كنت لا أدرك ماذا يعني الجمال، وسامة الرجل وملاحة المرأة. كانت تقول لي:

- إن الجمال هو كل شيء، جمال تعاملنا مع الآخر، إنسانيتنا التي فُقدت منا.

لذلك كم طلبت من أبي أن يتزوج كي لا يُحرم، إيمانًا منها أن التضحية جمال، وعندما يرفض أبي كانت ترتمي في حضنه قائلة له:

- أنت جميل.

كان أبي يرفع ياقته ويلف حول نفسه طالقا صافرة ثم ينحني أمام أمي مقبلا يدها وراقصا معها لتضحك وهي تبكي. كنا بدبي، وكان لأبي أعمال كثيرة، لكنه قرر أن نعود من دبي في بداية المرحلة الثانوية وأنهيت المرحلة ولم يتغير شيء في حياتي، غير أنني أصبحت أكثر نضجا في بعض الأمور، كنت أحب أبي حبا شديدا، تعلقت به، جعلني هذا الاهتمام ألا أهتم بمن هم في عمري، كانوا صغارا ومراهقين بالنسبة لي؛ لذلك تزوجت من رجل لا يكبرني إلا بربع قرن، كان طيبا بعض الوقت، أو أحيانا. لا يجيد التعامل مع النساء، خاصة امرأة نشأت وحيدة مثلي. لم ترَ إلا الحنان. عندما تقدم لي لم أكن أدرك ماذا أريد، كان بنهاية الأربعين وأنا بالعشرين أو أقل بشهرين. لا تُصِبك الدهشة سأحكي لك كل شيء. لحظات من الصمت دفعتها أن تخرج منديلا لتكمل:

- تعرفت عليه بحفل عيد ميلاد صديقتي، كان يتحرك كنجم من المشاهير، رأيت أبي بخطواته. فرحت به فرحا شديدا على الرغم من حزن أبي، انتظرت حتى أنهي دراستي، تمنيت أن أكون سيدة أعمال لي

شركات وموظفون وموظفات، وعدني أن يقدم لي المساعدة، ويأخذ بيدي لعالم المال، هو خبير ولتقُل غولا بالتجارة، تزوجت وتركت بيت أبي، وكل ذكرياتي. كنت في الثانية والعشرين، عشت معه أول ثلاثة أعوام أشعر أنه رجل يغار على زوجته الصغيرة، كنت أعذره وأخاف عليه من إحساس الضعف.

كان الحزن قد تسرب لملامحها، أراد أن يكسر حدته بقوله:

- من حقه.

- من هو؟

كانت تسأله وقد فُصلت عن حكايتها.

- زوجك!

- في ماذا؟

- غيرته عليك.

- شكرا.

قالتها ضاحكة.

- حقيقة والله.

- الحقيقة الوحيدة الآن أنني معك مربوطة بحبل لا أراه، لكنه موجود.

- ربما حبل يشبه حبل الحياة..

- ربما، أو يكون حبلا أختنق به، لا أدري.. نعود لحكايتي أم أصابك الملل؟

- بالعكس، فأنا معك بكل كياني..

كنت أشعر ببعض هواجسه التي تنتابه على الرغم من أنني كنت أذب أي شبهة تحوم حول حبي له، لكنه كثيرًا ما وقف أمامي يسأل نفسه لماذا وافقتُ عليه.. خوفه من القادم جعله يتشبث بي بشكل غريب، وكثيرًا

ما جلس أمامي وهو ينفث دخانه بشرَه، حتى إنني كنت أخاف عليه من الاختناق. كم تمنيت لو اقتربت منه وهدهدت ألمه وخوفه وظنه، لم يكن له أحد في مصر غيري؛ فقد تزوجت أخته، وتركت مصر كلها ولم تطُل غربتها فقد ودعت الدنيا وما فيها بحادث أليم رجَّه وآلمه، أدرك عندها أن نهمه في بداية حياته بطلب المال من أكبر. ذات يوم غريب جدًا سألني:

- هل الحب يجعلنا نسأل أنفسنا بعض الأسئلة السخيفة التي تكاد تهدد العلاقات ببعضها؟

ثم قال لي أمرا أكثر غرابة! أتعرف ماذا قال؟ لن تصدق، تمنى لو طلبتُ الطلاق والحصول على كل ما أريد؛ لأنه يختنق من غيرته عليَّ. كنت أضم رأسه على صدري حينها، شعرت أنني أمه على الرغم من أني أصغره، في تلك الأيام أصيب بداء كان علاجه صعبا، لكن كل شيء بيد الله، مشينا خلف أملنا في الشفاء، دُرنا حول العالم، ارتضى قدره، ولم يستطِع أن يتخلى عن غضبه.

لم أدرك معنى ما أنا فيه عندما وافقت، على الرغم من أنه وضع كل شيء تحت قدمي من مال، وأحبني جدا، وزادت غيرته أكثر وأكثر بعد مرضه، وزاد الطين بلة أنه ازداد هرما وعصبية.. لم أعرف أن هناك أمورا تحتاجها المرأة غير المال. في تلك اللحظات نضجت غريزتي الأنثوية، وشعرت أن ما تحتاجه المرأة شيء مختلف، وأنني لم أشعر بمعنى الحنان أو الحب الذي تمنيته. كنت بباريس في رحلة علاج مع زوجي، في تلك الأثناء دخل أبي المستشفى لإصابته بذبحة صدرية، لا أعلم سببها حتى الآن، إلا أنه قدر الله، اتصلوا بي وأخبروني بمرضه، تركت العالم، لفظ أنفاسه الأخيرة قبل وصولي بدقائق، خسرت أكبر فرس رهان في حياتي، هو من كان يشعرني بالأمان في تلك الحياة، على كل حال

شعر زوجي بدموعي وحزني على فراق أحب الناس لقلبي، خفف عني، كان زوجي طيبا إذا هدأت ثورات خوفه من رحيلي، لكن المرض يقودنا لتصرفات ترهق من حولنا دون أن ندري؛ لذلك كنت كلما توحدت مع نفسي وحاولت أن أكتب ما يدور حولي أجدني أشكل ألمي من حروف تنطق باسمي.

أتظن أن كلماتنا بعيدة عن شخصيتنا؟ أعتقد لا؛ فهي تتشكل من داخل رحم وجعنا وألمنا، وإذا ما غادرنا الأماكن التي حفرنا عليها ذكرياتنا نطقت باسمنا دون أن ندونها. لم تنشف دمعة أمي على أنيسها وحبيبها، تخيل إذا رأيتها بجوار أبي تقول أخته. يقولون: إن الدماء مع الأزواج تتشابه، والقسمات تختلط ببعضها ليتشكلا شيئا واحدا. لم تستطع أن تكفكف دمعتها، كانت أمي وحيدة أيضا ونشأت يتيمة، أحبها أبي في الجامعة، تقابلا في رحلة جامعية للقناطر، كان أبي يميل للفكر التحرري إلا أنه يكره الانحلال، على العكس يرى أن الالتزام في كثير من أشكاله هو التحرر بعينه، اتفقا على الزواج. بعد انتهاء الدراسة تزوجا، كانت حبه الأول والأخير، وكان هو حبها الأول والأخير، لم تستطع أن تعيش من غيره ولم تفارق الدمعة عينيها لتتركني بعد فترة بسيطة من موت أبي.

توقفت عن الكلام ومسحت دموعها المتلاحقة، كان عليه أن يكسر حاجز الحزن، طلب فنجانا من القهوة، بعد أن احتسى القهوة، خرجا إلى الشاطئ، كانت بجواره، شعر أن حلمه يتحقق وأن كل شيء يسير نحو أمر ينتظره من سنوات. جلست على مقعد مقابل للبحر، نظرت له ثم أكملت حديثها، كانت تريد أن تحكي له كل شيء لتقول له:

- مر عامان ثقيلان بعد وفاة أبي وأمي، لم يكن لي أحد غيره، ولأن أبي

أوصاني عليه، أصبحت أتحسس كل كلمة وأكتم حزني وألمي، كان يشعر بكم الألم والوحدة، فيأتي ويقبِّل يدي ورأسي، ويطلب أن أسامحه؛ لأضمه كالصغير على صدري، فيجهش بالبكاء. أعرف أنني قيَّدت نفسي بحب ربما يولد، يولد بيوم ما، فطول العشرة، كما يقولون، يزرع شجرة مودة. اكتشفت أن أغبى الناس هم الذين يقيدون أنفسهم بحب مجهول، حب لم يولد بعدُ، وما زال داخل رحم يمكن أن تضيق به ذرعا، ويمكن أن تلفظه مشوها غير قادر على الحياة، هم أيضا لا يستحقون أن يدخلوا عالم العشق، بل عليهم أن يظلوا خارجه حتى لا ينشروا أفكارهم بين أناس يسعدون بمشاعره، تشككت في مقولة بأن ثمة حبا آخر يدفعك للحياة. تأكدت بعدها أن القوى إذا خارت فإننا نستمدها من حب ننتظره وأنه سيمدنا بالحياة. ماذا أفعل ولست ذات تجارب أستمد منها ما يعينني على مواجهة القسوة؟ كنت جادة جدًا في حياتي لدرجة أنني لا أعرف ما تفعله الفتيات، بعد زواجي كان هو الأفضل؛ فالبكر تستقبل وتستنتج من استقبالها لتركنه في الذاكرة، كانت حياتي معه استقبالا. وها هو يرحل وتركني وحيدة وكأننا التقينا على رصيف مشاعري، تسكعنا كأطفال يلهون تحت أعمدة الإضاءة في الليالي الباردة، ولعبنا معا دون الوصول لنتيجة مرضية، خرجنا متعادلين حتى بأحلامنا الثكلى، هو ترك بذرة في أحشائي، وأنا أصبحت سيدة أعمال وأمًا لطفل وُلد بعد وفاته بشهرين، لم يكن له أقارب إلا أنا، ولم يكن لي أقارب إلا هو، يتيمين كنا معا. كان جميل القسمات، دائم الابتسامة، لا أطيق أن يبتعد عني، أقطع كل شيء من أجل عينيه. فجأة ومن دون مقدمات مرض مرضا شديدا تمنيت أن أكون مكانه، لكن يد القدر كانت أسرع. كان وداعه مختلفا. يومها رأيت العالم لا يساوي ظفره، منحني الله الصبر، وعاودت

الحياة. ذهبت إلى الحج، واغتسلت من ماء زمزم. عدت أفضل، وشعرت ببرد الصبر يسكن قلبي، ويمنحني البقاء، كل ليلة أقبل صورته، وأهز فراشه، وأنام، ورثته هو الآخر، أتدرك معنى أن ترث صغيرك؟ الأقدار جعلتني أرملة وأمًا ثكلى ولم أصل الثلاثين. عدت للحياة متمنية أن أزرع البسمة في قلب الصغار. أصبحت رئيسة جمعية ترعى الأطفال الأيتام، وكبر عملي حتى أصبحت سيدة أعمال كما تمنيت، أقطع العالم شرقا وغربا، وأمنح كل صغير بسمة، لكنني لم أرَ إلا الألم. أصبحت مطمعا لكثير من الآخرين ينهشون عظامي قبل جسدي ويتمنون أن يظفروا بامرأة جميلة وثرية وليس لها أحد، صيد ثمين لا مخالب له، يوما اقترب مني شاب، ألهب مشاعري بكلمات الحب والرومانسية وترك رسائل على مكتبي. لم أعِش هذه اللحظات، كان وسيما لبقا به مميزات كثيرة، وكان يشعر أنه من المفروض أن تكون مكانته أكبر مما هو فيه، باختصار لديه نقطة ضعف، هي الإحساس بالنقص، لكن ما المانع؟ فكل منا لديه عيوب، المهم في يوم أظهرت له العين الحمراء وبغضب شديد قلت له:

- لا أريد أن أرى كلمة مكتوبة منك، بل من الأفضل أن تترك الشركة كي لا أسمع منك هذا الكلام.

وأمرت له بمبلغ عشرين ألفا وترك الشركة، انتظرت أن يرفض وأن يغضب، لم يفعل، عرفت بعد ذلك أنه كان مختلسا وضيعا، يسرق من المبالغ المخصصة لاحتفالات الشركة. بعد هذا الشخص أصبحت لا أرى الرجال إلا بتوجس..

قاطعها قائلا:

- حتى أنا؟

- أنت؟! مطلقا، فأنت لا تعرفني، ولم تعرف عني شيئا. الحقيقة

أتوجس من أي أحد عرفني عن طريق التجارة والمال. باختصار هذه قصة فتاة سعدت بصعودها تبة من الرمال مثقلة الخطوات، جلست تخط بيديها حلمها، لتضع بعدها الكثير من الرمل على شعرها المنثور هابطة التبة وقد أغرقت شعرها مواجهة العالم وحدها، ورافضة المتسكعين في طرقات قلبها مخافة تكرار الألم.

كانت دموعها على خديها، وصوتها المكتوم يزداد نشيجا. لم يتكلما، ظل ينظر في عينيها واضعا إصبعه السبابة على خده مصوبا النظرات لها ومحاولا لو ضمها وربت على كتفها وأوقف نشيجها.

ابتسمت كاسرة حالة الوجوم مرة أخرى موجهة سؤالها:

- ماذا عنك؟

- أنا؟

ثم استدار حول نفسه باحثا عن غيره يتكلم، ليعيد الابتسامة لشفتيها..

ضحكت:

- نعم أنت.

- شخص بسيط، بسيط جدا، نشأت بقرية ريفية، حاراتها ضيقة وبيوتها وهنة، تسلم بعضها لبعض، كانت محاطة ببركة ماء، حملت قصصا كثيرة، منها المثير ومنها المخيف، أبشعها موت امرأة باسم الظن السيئ، كانت المكان الذي نتسابق إليه كي نغسل أحزاننا أنا وأصدقائي، قريتنا التي دفعتنا إلى البحث عن الوجود، كانت تضمنا في حنان لا يقل عن حنان أمهاتنا، نشأت في بيت فقير، احتفظ بمظاهر عز مضت، سمعت عنها ممن حولي، لم أرَها بعيني، شعرت بها مع ابتسامة أبي، وبوابة بيتنا المنقوش عليها تاريخ من سبقونا وسكنوا هذا البيت، منذ

جاء جدي الأكبر إلى هذا المكان وبناه..

- بوابة!! تاريخ!!

قالت متعجبة وضاحكة..

- بوابة امتلأت بأسنان العائلة وضروسهم، هذه سِنَّة جدتي، وهذا ضرس جدي..

ضحك مكملا:

- هكذا عرفنا تاريخ كل واحد منهم، والكبير يعلم الصغير كي يحفظوا ترتيب العائلة. المهم أنه بعد مرور سنوات بحلوها ومرها، عرفت أنني نشأت مع أب حارب تغير الزمن بصمت وأم مضغت الألم ولاكته حتى لا ينتصر عليها متحملة قسوته كي تعبر بنا حاجز الزمن. غرس أبي فينا كل شيء جميل، ببساطة دون أن يتكلم. تعلمنا جميعا، وافترقنا، منا من ودَّع الدنيا، ومنا من ودع مصر. شعرت أن كل أحلامي تتبخر مع خسارة أخي «وليد»، كان أقرب الناس لي، معلمي الذي تربيت على يديه، تعلمت منه الثورة، وعلى يديه تعلمت الحياة والحب. لي أصدقاء أيضا تفرقوا في بلاد الله، تجمعنا لحظات حب صادقة، فتحت الدنيا ذراعيها قليلا، وانتقلنا من فقر لحياة أيسر وأفضل، لست ثريا وإن كنت أشعر أن المال هو آخر ما أفكر فيه، وليس عصيًا على مثلي أن يقول ذلك؛ لأنني رأيت الثراء الحقيقي في السعادة. هذه التي نفتقر لها في حياتنا حتى داخل أنفسنا.

لم أتزوج، لكن أحببت مرة عندما كنت صغيرا، أحببت «ماريا»، تلك التفاحة التي قُطفت قبل الأوان.

- أين ذهبت؟

سألته وهي تنتظر الإجابة.

- هاجرت، تركتني، تحوّلت من حب صغير إلى حب أحتاجه كلما قست الدنيا، ترياق يشفيني وأنا أعرف أنني لن أراها مرة أخرى.

- ما زلت تحب «ماريا»؟

- «ماريا» جزء من قلبي يضخ الحياة، لكن ليست ذاك الحب الذي أريد أن يكون لي الحياة، «ماريا» أمل الباحث عن الماء في صحراء، لكنه لن يسكن تلك الصحراء، براءة الحياة. كنا صغارا نلهو معا، نبحث عن الوطن الساكن فينا، تحكي لي عن ترانيم كنائسهم كل أحد، وأحكي لها عن ديننا.. قالت لي إن أباهم نظر لها نظرة حزينة وتركها. لم يتكلم معها، شعرت أن أمرا نافذا اخترق قلبها وأن حياتها لن تكون كما تحب. هي مضت ككل شيء جميل في حياتنا يمضي.

- ولم تحب بعد «ماريا» نهائيا؟

- لم يكن هو الحب الذي أتمناه، في النهاية فشلت كالكثير من أبناء تلك الأجيال. فشلت ولا أدري أهو الفشل الذي نتمناه أم هو الفشل الذي نخافه!

استوقفتها كلمة «الفشل الذي نتمناه» متعجبة ومندهشة من حديثه، لتسأله:

- أهناك فشل نتمناه؟

أجابها:

- هو نفسه ما نبحث عنه من أجل الحياة. ربما لو فكرت فيه قليلا ستعلمين أن فشل قصة ما قد يكون أعظم منحة من الله.

هزت رأسها غير موافقة على أن الفشل في الحب يمنح الراحة، لكنها وجهات نظر تبرر لنفسها الخيبة أحيانا وتحاول العبور من الباب الضيق حتى لو حشرت فيه حشرا. شعرت بالبرد.. عادا للفندق مرة أخرى

وجلسا بجوار النافذة ليشهد البحر على قصتهما.

كانت السعادة مرسومة على قسماتها، طلبت منه أن يكمل بابتسامة.

هز رأسه في المقابل وبدأ يكمل قصته:

- مع مرور الزمن مضى حبها، انطوى كصفحة من صفحات الحياة، نضب زيت حبها وانطفأ القنديل المتوهج في لحظة كما قال «ناجي» (كان صرحا من خيال فهوى).. نعم أصبح خبرا وحديثا من أحاديث الجوى.. فقط يذكرني بعدم القدرة على اتخاذ القرار، فأشعر أننا جميعًا نعاني الألم.

- وهل ما زلت تهواها؟

- لا.. لقد تزوجَت وأنجبَت، وليس من الخُلُق التفكير فيها، فكثيرا ما نجد أنفسنا بين خيارين في حياتنا: خيار الأصلح والأبقى والأهم، وخيار الهامش الذي يمكن أن نكتب فيه بعض ما يدور في خلدنا، أو نضع فيه بعض النقاط التي تساعدنا على كتابة أفكارنا الصحيحة، لكن ليس هو الواقع؛ لتظل حياتنا معلقة بين كتابة سطور ذات أفكار مهمة داخل الورقة، أو كتابة سطور ذات أفكار طارئة على هامشها، في الأحوال كلها يجب أن نهتم بأفكارنا الصحيحة؛ لأنه لا يمكن الاستغناء عنها، وفقدانها يدفع للرسوب والفشل، ولا مفر من المحافظة على الآخر الذي يمكن أن يختار طريقا غير طريقنا، ونصبح في نظره هامشا يدوِّن عليه بعضا من أفكاره وأحداث عمره.

- أيمكن أن تعود لها؟

سألته محاولة أن تعرف.

كانت إجابته أسرع مما تتخيل، ليرد:

- لم يصبح في تفكيري أن أرتبط بها، أحتفظ لها بذكريات جعلتني

أرى الحب بشكل مختلف. الغريب أنها قالت لي وهي ماضية بأن حروفها ستظل تطاردني حتى وهي تغادر قلبي من كل أبوابه، لحظتها ضحكت، لكن لم أعرف أن الماضي تاريخ لا يمكن الهروب منه حتى ونحن على فراش الموت..

- والآن ما زال قلبك...

- الآن أصبحت أحتاج للحب أكثر من أي زمن فات.

- من تلك سعيدة الحظ؟

- امرأة هبطت على مدرج مشاعري، احتلت مطار قلبي، جعلتني أرى الحياة، وأصبحت أمتلك قرار الاقتراب دون الرجوع.

- واحدة؟ هل هناك رجل يحب واحدة؟

- طبعا إذا كانت نبعا يروي أرضي لتزهر من جديد وردا وزهرا.

- أصدق أن امرأة يمكن أن تحب رجلاً واحدًا فقط، لكن الرجل.. اسمح لي لا أصدق أنه يحب امرأة واحدة.

نظر لها، هز رأسه مشيرا على قلبه ضاحكا..

ابتسمت قائلة:

- ربما تكون أنت وحدك من بين البشر.

عاد لحديثه مؤكدا:

- لا أقارن حب المرأة بحب الرجل؛ فالمرأة إذا أحبت منحت قلبها للرجل، وهو إذا أحب أعطى جزءا وترك الباقي من أجل مغامراته. مع ذلك متيقن من أن كل قاعدة لها استثناء، وأن واحدة تكفي المحبين، إذا لم يجدوا تغيرا ممن يحبون. ما أعرفه عن نفسي، أما عن البقية فلا أدري، فالتعميم بداية الفشل.

- صدقت، أحترم الرجل الذي يفهم هذا. طيب و«ماريا»، ألم تكن حبا؟

- «ماريا» زنبقة بيضاء لم تجد الرعاية، مع ذلك ظل عبقه حولي أستمد منه الحياة كلما ضاقت عليَّ الدنيا.

- أين تعيش «ماريا»؟

«ماريا» التحقت بدير وسط قلاع البرد، اختارت طريق الخلاص، لم تستطع أن تحب أحدًا غيري على الرغم من أن كل القوانين والأعراف تحارب حبها. اختارت طريقا لا يستطيع أحد أن يتعرض لها فيه؛ فهو طريق الحب الأبدي، احترفت العزلة كي تحافظ على هذا الحب. لقد قالت:

- إن حبا نبت في مصر لا يمكن أن تقتلعه ريح أوروبا أو عواصفها.

كانت دموعه على «ماريا» تعلن عن قلب إنسان لا ينسى من أحبه، ويدين له بالفضل في وجوده، ما جعلها تشعر بالأمان.

سألته وهي تبتسم:

- هل هناك أسرار أخرى؟

كانت تحملق بعينيه كأنها تجبره على الحديث معها وكأنها تعرف أن هناك بعض الأسرار المختفية التي يوما ستعرفها، لكنها تأكدت أن «ماريا» جزء لا يمكن أن يُفصل عنه؛ لأنه تشكل بها، ولم تكن كحب مجنون لامرأة من حروف، كلما غضب منها مسح حرفا حتى أعاد ذاكرة الحب لصفحتها البيضاء.

قال لها وهو يمسح دموعه على «ماريا»:

- بعض منا نشعر أنه ممنوع من العرض لأنه يخصنا، هي أسرارنا التي نخجل منها أمام ضمائرنا في لحظة لأنها يمكن أن تكون السم الذي يسري في جسدنا ببطء، فإذا حاولنا علاجه انتشر وأصبح من الصعب الحياة به.

هزت رأسها بالإيجاب، ثم نظرت في ساعتها، لجأت للوقت هربا تاركة

مساحة خلف كلماتها الرافضة للرحيل، فما أصعب الرحيل إذا فرق لحظات سعيدة وأعادك إلى حافة الصمت متعجبا للقدر الذي يفرقك عمَّن تهوى. خطواتهما تتشبث أكثر بالبساط. ذهبا معا إلى المصعد بشعور غريب انتابها، وبشريط ذكريات يمر من أمامها مع لحظات حملت الأسى والألم. المصعد تحرك صعودا، وقلبه تحرك هبوطا، وهي مع ماضيها الذي ترك آثاره على كل لحظة تتعايشها. توقف المصعد، وتركته مع أحلامها، كانت كلماتها تمتد معها على البساط الأحمر، تسكن مآقيها عبرة تريد العبور، لكنها تخاف أن تفسَّر بالخطأ؛ فدموع المرأة دائما ما تفسر أنها سلاح تطعن به الآخرين. عاد لحجرته، جلس على فراشه رافعا يده على رأسه مخرجا زفرات متتالية، ثم رفع قدمه؛ ليلعب لعبته المفضلة. قام ناحية النافذة المطلة على صفحات الخليج، نظر بدقة، تراءت أمامه أسراره العائمة، تمنى لو جاء تسونامي وأغرقها.

قرر النزول إلى الشاطئ، كان الموج مرتفعا يضرب رمل الشاطئ يحركه من سباته وغفلته، تذكر من تركهم يعدون للقادم؛ فالأرض لا يحررها الجبناء، ولا من يعطونها ظهورهم، الأرض لا تعترف إلا بمن يفتحون صدورهم لدوي الرصاص، هي لا تعترف بالكسالى النائمين، لا تعترف إلا بالمنعتقين من خوفهم وكسلهم، وليس من هرب بحجة واهية. هرب جبانا في وسط الليل، ولم يقدر أن يقول لا، خاف أن ينتفخ بطنه، وأدار ظهره، لم يتحمل، اختار الطريق السهل، وندب الحظ. شعر بالبرد في طريقه للفندق في الليل، كان لكل خطوة ثمن. عندما تتساوى الحياة لن تعرف قيمة الخطوة، خاصة في الحب. تعلم أن عبور قلوب البشر لا يجب أن يكون كعبور الطرق. فتح المصعد، أطلق تنهيدة، دخل حجرته مرتميا على فراشه، متذكرا شيئا واحدا هو الثورة. فتح حاسوبه، تمدد

بحجم حجرته أمامه، رأى العالم كله بألوانه المختلفة، جلس على فراشه مربعا قدميه، أراد أن يقتحم شاشته. أخذ يتنقل بين الصفحات، أراد أن يدخل إلى العالم الحر الذي حلم به طويلا، وحمل الجزء الأكبر من تفكيره، ولم يترك إلا ندب الملاحقة غير المتوقفة حتى ظن أن كل شيء يتبعه ويراقبه، حتى شاشة الحاسوب التي تكبر أمامه وتصغر ظن أنها تراقبه يوما وتسجل كل ما يتمناه. ظل يتنقل صفحة تلو صفحة؛ ليجد ما يُدخل على قلبه الراحة ولو للحظات. بحث عن هاتفه، وجد اتصالا، لم يكن يدرك أن اللحظات الماضية حملت نورا سطع وسط ظلام، وأن الخفافيش التي تطاردهما حتما ستهلك، فتح حاسوبه، بحث في رسائله، وجد رسالة من «ماريا»، كأنها تشعر أن قلبه تنبت فيه زهرة أخرى؛ فقلوب المحبين تشعر بأحبابها، تشعر بأفراحهم وأتراحهم.

فتح الرسالة وجدها تقول:

- «سالم» حبيب القلب.. بعد مرور سنوات طوال، وبعد أن صُبغ قلبانا بتجارب الزمن، وبعد أن قست تلك التجارب علينا، ولم نستطع أن نرد قسوتها غير باستسلام الضعيف. أقول لك سرا أخفيته منذ عام، تمنيت ألا تعرفه، الآن أحببت أن تعرفه حتى لا تظن بي إن انقطعت رسائلي عنك أو تظن أنني فضلت على قلبك قلبا آخر: منحني الله جائزة بالدنيا، واختبرني بمرض السرطان ذلك الذي تكرهه لأنه دائما ما ينقض على أحبابك، عرفت عندما أصبت أنني من أحبابك، وأن لي مكانة في قلبك. آه يا «سالم» لم يوجعني كما وجعني بُعدي عنك، كالانتظار الذي أخذني حتى من الدير، لقد تركت الدير وعلى كل حجر فيه اسمك وقصتنا التي بدأت صغيرة وكبرت، حكيت لكل ركن فيه عن حبي لك، هناك في الدير وأنا أجلس وحيدة شريدة وبين ترانيم الكنائس راضية بالقليل من حبك

ذاك الذي غرسته ذات يوم ونحن صغار، آه لو تعرف حتى لهذا المرض الذي لا تحبه، حكيت له عنك، غار منك فقرر أن يسري بكل جسدي، وها هي الأيام الأخيرة لي يا «سالم» قد اقتربت، ما يحزنني أنني لن أراك، آه يا «سالم» لو أراك ولو للحظة واحدة، سيُكتب لي عمر جديد، وأعود للحياة، وينبت شعري الذي تساقط، وتعود بسمة رضاي. أتعرف أكتب لك رسالتي وأنا بجوار من؟ لن تصدق من بجواري، ويسند لي الحاسوب. «جرجس» صاحبك وحبيبك، الذي دائما يقول: إن الصداقة التي تنبت في أرض مخصبة بالصدق لا يمكن أن تموت، وأرد عليه بالعبارة نفسها: إن الحب الذي ينبت صادقا لا يمكن أن تجف أوراقه أبدا..

«سالم» أيها الحبيب، ها أنا أستعد لألبس ثياب الزفاف التي تمنيتها في لحظة غير تلك اللحظة، لتنعم روحي بالسلام، وتذهب للسلام، أنا مؤمنة بأن الله محبة ورحمة وأنني لم أقترف ذنبا يوما، ولم أكن مؤمنة إلا به وحده، سيتغمدني ربي برحمته لعلني ألقاك هناك، هل ستدعو لي يا «سالم»؟ أتعرف أننا جميعًا نلتقي على عبادة الله ومحبته؟ فلماذا لا نكون معا؟ أحبك. هذه آخر حروفي لك، أرجو ألا تنسى «جرجس»؛ لأنه هو من سيذكرك بي. هو يحبك، ويتذكر أنكما نبتُّما في أرض واحدة، وشربتما من نبع واحد.

ختمت رسالتها محبتي، وإلى لقاء يجمعنا لا يفرقنا. نزفت الدموع من عينيه، تمنى لو كان يملك السفر لها لفعلها. لكنه حاول أن يكتب لها رسالة كي تعرف أنه:

- «ماريا»، أيتها الساكنة قلبي، العابرة حدود الزمن، العازفة على وتر لا يمكن أن يرتخي؛ فحبنا مشدود حتى نهاية العمر، وإذا كانت أحجار الدير وأركانه قد عرفت حبنا، فكل حبة رمل على الخليج، وكل ذرة تراب

بأي بلد نزلته، وكل شخص التقت عيناي عينيه، عرفوا جميعًا قصة حبنا التي نبتت ذات لقاء، ونحن نلعب في شوارع قريتنا لعبة نهزم فيها ظلام الليل والخوف من الجنية التي تقتحم خلوتنا فتفزعنا حتى ونحن بعيدون عنها، «ماريا» أيتها الحبيبة، سأسافر لكِ كي أُمنح الحياة على يديك من جديد، هي محبة الله التي اختبرتك، ومنحتك كل ما هو جميل، وصفت قلبك المخضب بالحب، محبتي «ماريا»، من «سالم» الذي لم ينسَ أبدا عهده لك.

أغلق حاسوبه ومسح دموعه متمنيا أن يراها، ظل يفكر فيها حتى ذهب في نوم عميق.. بعد ساعات استيقظ على اتصال أكثر ضراوة، وأكثر حمقا في صوته المتكرر؛ ليقوم لاعنا اليوم الذي حمل فيه هاتفا محمولا. بصوت متجهم وعابس:

- نعم؟

- ما زلت نائما؟

- نعم!

- الساعة الثانية عشرة!

- لا تقل هذا!

- والله؟!

- ياااااااا، لقد نمت كثيرًا، لم أفعلها منذ سنوات، ومع ذلك أرغب في النوم!

بضحكة:

- وما السبب؟

- سهرت مع تونس.

- تونس.. يا سلام!! وكيف تونس؟

- أتسخر يا غبي؟
- لا.
بضحكة تمتلئ سخرية:
- هيا استيقظ، تونس تنتظرك، هيا أسرع، كلنا في انتظارك..
- نصف ساعة فقط، وسأنتظرك.
- سأكون جاهزا، إلى اللقاء.
- إلى اللقاء.

قالها، ثم أغلق الهاتف حاملا منشفته في يده، ارتدى ملابسه، خرج من حجرته ومشى على البساط الذي لم يلفت نظره هذه المرة، ولكن كانت نظرات ذلك الخادم تتبعه في مهل، ومعها ابتسامة تحمل في طياتها معنى الحياة وتلك الدلاية التي كانت سرابا..

وقف أمام المصعد، ركن على جداره، أخرج آهات رجت صدره وجعلته لا يشاهد مَن أمامه، نظر في المرآة جيدًا، غادر المصعد باحثًا عن المانحة بسمة الترحاب. نظرت له وابتسم وبحث عن صديقه. تلقفه صديقه «وجدي» في ابتسامة، وبضحكته الساخرة على الرغم من سنوات من الغربة، تلك التي قالها يوما:

- كي نكون مختلفين لا بد أن يكون لنا ذيول مثل الحمير تماما.

ضحك متذكرا تلك الكلمات؛ ليفتح يده ويضمه في اشتياق لذكرياتهما مع لعبة السيجا، والجنية مصدر حديثهما الدائم والأبدي، و«شلبي» الباكي عليها والباحث عنها، وهذا الكرش الذي غرس في نفوسهم معنى المراقبة والجاسوسية التي كرهها وكره كل من يمارسها، ومعه كل هؤلاء الأصدقاء الذين لاقوا العقاب تلو العقاب.. كانت ضحكته ترج المكان، غير مبالٍ بمن حوله، بل جعلت كل من يحيط بهما يبتسم لضحكته التي

لم تتغير ولم تتبدل. جلسا لدقائق، ثم خرجا معا إلى بقية الأصدقاء مخلفين أحلام طفولتهم. ركب بجواره سيارته الفارهة التي لم تبدل خفة دمه وتمسكه بأرض زُرع فيها وتعلم منها الخير والتواضع والحب والعطاء. عندما خرجا من الشارع الأمامي نظر من النافذة وجد «مريم» تقف مع أحد الأشخاص، وضع يده على ذقنه. تدارك الأمر وتحدث مع «وجدي» عن أحواله، وعن تلك الحبيبة التي ما زال يحمل لها حنينا وشوقا منذ كانا صغيرين يحكي له قسوتها وجبروتها، كان زحام شوارع دبي مخيفا، مع حديث «وجدي» عن ماضيه كان ينقشع الزحام سريعا. سأل عن «جرجس» وعن «ماريا»، في آخر مرة تقابلا بقريتهما كان «سالم» يتحدث عن اشتياقه لـ«جرجس» وأنه يريد السفر كي يقابله. نظر «وجدي» له، عرف أنه يبحث عن «ماريا» في عيني «جرجس»، لم يعرف أن «ماريا» تخبره ما حدث لها.. نزل من السيارة، التفت «سالم» حوله، مع هذه النظرة العابرة المدى، شاهد عيون الأصدقاء ترقبه، ومعها ابتسامة دافئة جعلته ينسى كل شيء ويسرع نحوهم..

كان المطعم المطل على الخليج يحاكيه، ويحاكي معه قصص العاشقين، ومع الضوء الخافت وحرارة اللقاء التي سرت في جسده النحيل فطردت برودة الأيام، وأعادته لجلسته حول الموقد الفخاري منتظرا كوبا من الشاي المعتق، جلس «وجدي» يحكي عن الجنية سائلا عن البركة التي رُدمت ورُدمت معها حكايات كثيرة، وعن «شلبي» وزواجه من امرأة هولندية وسفره هناك.

قاطعهم «محمد» قائلا:

- سافرت لهولندا عدة مرات، تزوج «شلبي» من «سوزي»، تشبه جنيته تماما.

قالها وضحك..

- أنجب منها ابنا وابنة، هربت وأخذت الطفلين معها، وتركت له خيبة كبيرة، الآن يعيش بين نارين، ولا يعلم ماذا سيحدث لهما..

أكمل أنه نادم على الزواج من امرأة أجنبية؛ لأنها لا تعرف حياتهم وماذا يحبون أو يكرهون.

كان «محمد» يحكي عن زوجة «شلبي» الهولندية وهو كان مع «وليد» الذي وصف زوجته أنها رائعة ومطيعة، يقول:

- هناك امرأة تشبهك تبحث عنك، وتبحث عنها، ومن المؤكد أنكما يوما ستلتقيان.

قالها «وليد»، وأضاف أنه التقى من تشبهه، ربما لأن «وليد» جميل ومقنع، و«شلبي» رومانسي جدًا في زمن يحتاج للعقل، للعقل فقط.

مر الوقت بكل ما فيه من ضحكات، وما زال «وجدي» يؤكد أن الاختلاف أن نكون حميرا، وأن يكون لنا ذيول، رد «محمد» مستفهما:

- ألسنا حميرا؟

كان رد «محمد» يحمل شجنا وخوفا على الوطن، وعلى من رحلوا في مرض وصمت، حكى لهم ما سيحدث في القريب، وأن الغد يحمل تباشير مختلفة، تباشير صباح ربما تقضي على غربتنا تماما، أو تجعلنا كما نحب.. اندهشوا لكلامه الغريب للحظات قبل أن يودعهم جميعا.

مر الوقت سريعًا وانتصف النهار بعد جلسة طويلة تحدث فيها عن الذكريات، بدلوا المكان غير شاعرين به وقبعوا في قريتهم أم الرجال وأمام الذكريات التي لا تموت. عاد مع «وجدي» إلى الفندق، دخل من البوابة نفسها التي مر منها. في طريق عودته رأى امرأة الطائرة مع الرجل نفسه، لم يستطع الاقتراب، ولم تكن لديه الجرأة، أحس بمطرقة وقعت على

رأسه جعلته يتوقف عن التفكير. لم تره ولم تعرف أين هو منذ الصباح، ترددت في الاتصال بغرفته، لكن غريزة الحياء منعتها، جلست وكثير من الأسئلة ترتطم في أعماقها، شردت معه وهي تسأل:

- أين هو الآن؟ هل هو ككل الرجال إذا ما اطمأنت قلوبهم وأقفرت مآقيهم عن دموع الشوق والحنين ونسوا من تعلقن بهم؟ أصبح قلبي مباحا، كل هذا في لحظة غيبت فيها عقلي وخاطبتني غريزة الأنثى، لم أعرف أن امرأة تسكنني. هل تختلف عن الآخرين أيها الرجل؟

في أي شيء تختلف: قلبك، مشاعرك، نظرتك التي تحتوي العالم؟ الآن أنا بين حلمي وبينك، يا لي من امرأة حمقاء تنتظرك؛ لتشكو جفاء قلبك الذي لم يشعر بألم الفراق والبعاد وأنين الوجع. حلمت بك يوما، رأيتك أمامي، حتى قسماتك، قد نلتقي بنفوس دون أن نراها فنحبها ونتمناها، وقد تكون جميلة وهي بعيدة. آه من الذين يطرقون على قلوبنا بهمس، ثم يغيبون عنا في صمت، ولم يعرفوا أنهم سلبوا دقات الحب والحياة منها..

تحركت نحو المرآة، وضعت أناملها على تجاعيد السنوات الماضية، تعلم أنها خدعت نفسها بأنها أفضل. لم تنظر جيدًا بالمرآة ولم تهتم، الآن قررت أن ترتدي فستانا عشبيا. قررت أن تقتحم عالمه بأنوثتها.

كان بغرفته يفكر في القادم الذي لا يعرفه، وما سيحدث بعد ذلك، مرت ليلة ونصف نهار ولم يتبقَّ إلا مثلها وما زال متأرجحا بين مشاعره هنا وهناك وبين عطر وآخر وبين خوف في قلبه من غد يفرق وقد يكون مؤلما، ارتدى ملابسه، أطلق صافرته بعد أن تصالح مع ذاته لبعض الوقت. بحركة بطيئة جدا، وقف أمام حجرتها، ثم أكمل المسير بخطوات بطيئة نحو المصعد، كان يحاول أن ينتظرها، خرجت بملابسها الأنيقة، وشغف الاقتراب منه؛ لتشم أنفاسه، ويشم أنفاسها. بحركة أنف تعبر

عن سعادتها أنها رأته..

دخلا المصعد، اتجها ناحية المطعم، حركة مد وجزر لحروفه، رجع لنقطة الصفر، رجع للقاء الواحد أو الثاني على أفضل تقدير، لكنه مصمم اليوم أن يغادر هذا الشعور السخيف..

انطلقت حروفه دون خوف سائلا إياها:

- شاهدتك اليوم.

- أين؟

- في الشارع الخلفي للفندق، كان معك رجل هرم!!

- صديق أبي.. ألم أقل لك إن ذكرياتي الأولى كانت هنا؟

- بلى.

أجابها سعيدا، قائلا:

- أتسمحين لي بالرقص؟

- مرة أخرى.. لا أجيد الرقص.

- ولا أنا.

- سنفعل كما يفعل الناس.

- سنراقص أحلامنا.

- هل رقصت مع أحد من قبل؟

- الحقيقة، لم أرقص مع أحد.

- في أحلامك؟

- فعلت، فأجمل الأمور أن نلتقي من نحب دون أن نراه، نلامس أنامله، نجري معه تحت حبات مطر من صنعنا، نختلف ونسامح، نقسو ونحنو ونحن بعيدون..

- ها هي يدي.. تفضل.

أخذ يدها، ووضع يده على خصرها، شاعرا بأنه في عالم آخر، قدماه كانتا تراقصان الحياة وتلعبان معها لعبة شد الحبل.

كانت تحدثه عن دبي وعن ذكريات المكان التي تشكلت هنا، عن آخر سطر لها وآخر كلمات تشجيع نالتها.

كان هو في هواجسه ومع شعور غريب انتابه. كان خوفه من قادم يشعره أن الاستمتاع بالسعادة هو بداية الوجع. في تلك اللحظة التي استحضر فيها الوجع ولم يتعلم من المرات السابقة اهتز هاتفه، رد على الطارق، وقف ناظرا في عينيها، ومعتذرا عن قادم مخيف، لم يكن يعلم أنه بهذه السرعة.. على الرغم من أمله أن كوة ستدخل نورا عظيما، وسينتشر في أرجاء قلبه. قضم على شفتيه، وترك اعتذاره الصامت، وغير المدرك للقادم. من دون كلمات، رفع يده مغادرا فصلا من فصوله غير المكتملة وأنه عليه إغلاق دفاتر بعض من يحب؛ لأن القلب لا يقوى على ذكراهم..

سألته مندهشة من تغير ملامحه:

- ماذا بك؟

- أمر ما!

- هل لي أن أعرفه؟

تذكر هاجس الجاسوسية وخوفه من الجميع، الآن لا خوف؛ فالجميع سيعلمون ذلك، لن يخاف، سيحكي لها، كانت خطواته الراقصة في غير هدى قد ضلت بعض الشيء..

نظرت تستجدي الإجابة وكأنها أم لهفة على صغيرها:

- ما هو؟

- أتصدقين؟

كانت قسماته تضحك وهو يسألها..

- ماذا؟

تمنت أن يحكي، وعلى الرغم من قلقه رأت الفرحة على وجهه..

- أمر ما، كان حلما يراودنا منذ زمن.

- ما هو؟

- سننزل الميادين.

- من أنتم؟ وأين؟

- الكثير من المحرومين الذين يشعرون بألم الكبت والوجع.

- لكن..

- مستعدون بأكثر مما يتخيلون.. إن عدت سالمًا لن أتركك.

- أنت «سالم»..

- شكرا لك..

- سأشتاق لك!!

- وأنا، ربما لا أراك مرة أخرى.

- لا تقُل ذلك..

- لن أقل غير...

ثم صمت.

لم تتركه في حالته، وقابلته بابتسامة ترجوه أن يعود لها مرة أخرى، على الرغم من أنها تعرف أن ما بينهما أمر ما ورابط ما. لن تسمح بالتفريط في رجل مثله، شعرت معه بلحظات حب حقيقية، سمعت المكالمة، وعرفت أن العودة حتمية، وربما تحمل في رحمها فراقا.. كلاهما يعلم أن القادم صعب، وربما يكون في غير مصلحتهما، لعنت التوقع الذي يقود للألم، ومع خطوات حزينة قررت أن تترك كل شيء.. مشى بجوارها، ولم يعرف غير الشريط المؤلم المحطم كل كسرات الأمل، أدرك أن ألم الرحيل الآن أخف بكثير من ألم يمكن أن يكون قادما، ولا يعرف ماذا سيكون فيه..

(5)

في ممر اختلف ومصعد اختلف لم يرَ البساط الأحمر تحت قدمه، رأى شيئا آخر، وقف أمام حجرتها معتذرا، تحرك من دون الخادم الأمين الذي حمل عبق أفريقيا.. في حجرته نظر للخليج، مودعه ومودعا أسراره في باطنه، رفض أن يحكي سره الجديد. رأى «مريم» أمامه على ماء الخليج تبتسم، وتمسح عبرة من عبرات الفراق، التفت للصورة، تأمل الخليج الثائر مودعا مشاعره التي لا تعرف مرسى ولا شاطئا تستريح عليه، صمت وحمل حقيبته.

كانت في غرفتها تعد حقيبتها على عجل، نسيت ما جاءت له ولم يصبح له أهمية عندها بعد أن سكنها رجل كانت تبحث عنه، غيَّرت فستانها العشبي، ومسحت كل زينتها، ارتدت ملابس السفر المحببة لها في الرحيل، ومع بسمة موشحة بالألم، لعنت حبا اعتراها في لحظات، وها هو يضيع في لحظات، إلا أنه سيظل هذا الحب متمكنا؛ لأن الذين يتركون في قلوبنا أثرهم الرائع على الرغم من رحيلهم هم الذين أجادوا العزف على أوتار قلوبنا بشكل تلقائي. وقفت خلف بابها تودع شعورا بالحب لرجل لم تعرفه، وحمل دهشة؛ ففي دهشة اللقاء إحساس غريب يولد في داخلنا، وفي لحظة الفراق شعور مستبد نتغلب عليه بدمعة صامتة..

فتح باب الحجرة، مضى على البساط المختزل أحلامه، مؤكدا أنه لا حب في وطن منكسر وأن الحب يموت إذا كُتبت آخر فصوله على عجل. انتظرته أمام بابها، تحركا معا على البساط الأحمر متشبثين بالحلم، كأنهما لا يريدان الرحيل، لم يكن هو بساط الأمس، ولم يكن هو هو ولا هي هي ولا العطر الذي يفوح ويملأ أرجاء الممر، فتح باب المصعد،

تشابكت يدها مع يده رافضة أن تكون بعيدة عنه. عادا للسائق نفسه الذي جاء بهما، لم يتكلم ولم يسمح لنفسه بالدخول في الحوار، نظر في عين السائق، طالبه بعدم الحديث، قرأ السائق ملامحه الحزينة. فتح مسجل السيارة، انطلقت أغنية أم كلثوم «رق الحبيب». عاد برأسه للوراء ناظرا من النافذة. سرح قليلا في الشوارع المكتظة بالسيارات الفارهة، لم يستطِع أن يميز جمالها. هكذا هي الحياة تجعلك تمل كل شيء حتى الجمال فلا تشعر به إلا إذا رأيت بديله. اختلس من عينيها نظرة، عطرها كان يملأ أرجاء السيارة. أثناء ركوبها السيارة، استنشق أحد المارين بشكل مستفز رائحة عطرها، تغيرت ملامحه، وأصيب رأسه بدوار. ابتسمت عندما رأت ملامح وجهه العابس. عرفت أن حبها تمكن منه. رجعت لخاتمها الأخضر، حاولت أن تبث فيه الحياة، كانت دقات قلبها في تسارع بينما هو في صمته متذكرا ما مضى، رافضا فكرة الرحيل، متحديا القادم بما فيه من تقلبات وأحداث، هز رأسه قائلا:

- ليس مهمًا أي شيء في هذه الحياة إلا...

لم يكمل كلماته، بل ظل معلقا في صمته وحبه، حالته التي تهاجمه كلما اقترب من اتخاذ القرار. كانت البيوت من حوله تعلن ثراءً فاحشًا بأسوارها العالية والضخمة. تعالَ هنا لا تقترب حتى لا تقع من «الناروزة»، لا تستند على أقراص الروث حتى لا تأخذك وتنزل بك، الجدار المتهدل والطوب الذي ذاب من ماء المطر في الشتاء، هؤلاء القادمون من القاهرة ليزوروا أقاربهم ويتأففوا من البراغيث. كان هو هنا وهناك في عالمه الذي يمتد من الخليج للنيل، عاش مشتتا بين قريته وبين مدن غاب عنها وعي الحب، فقست عليه. تمنى زيارة قريته والعودة لها مرة أخرى في اللقاء الأخير مع أصدقائه، عرضوا عليه شراء قطعة أرض، لكن صديقه

«وجدي» - صاحب الذيل - أخبره أن بيتهم القديم يبيعه عمه. قرر أن يشتريه. تذكر أن عمه سيرفض عندًا. قال لـ«وجدي» يوما:

- أقسم بأنهم لن يعيشوا هنا وسيظلون غرباء ودائما في شتات. لم تكن رغبتي أو رغبة «وليد» أن نعيش هكذا، لكن الحياة التي ضاقت بنا ذرعا.

اتصل «وجدي» بعمي ونحن جالسون، طلب منه أن يشتري البيت. سأعود إلى قريتنا وأبني بيتا يشبه بيتنا القديم، لكن من دون سور من الروث، الأمر المحزن فقط أن تاريخ بيتنا بيع في بلد بعيد. أخذ يحرك يده سريعًا وهو يشتم عطر ذكرياته القديمة، لا يعرف لماذا عاد للوراء، إحساسه بالأمان جعله يفتش عن ماضيه.

كانت صامتة، شيء ما نبت جعل من فراقه استحالة.. هكذا قالت لنفسها وهي تحرك خاتمها الأخضر الشاحب. لا تعرف ماذا ستفعل، كيف ستتغير حياتها مرة واحدة.. عاد قلبها ينبض سريعًا كقطار تأخر موعده، أصبحت تتمنى أن تحمل وردة حمراء مدسوسة بين دفتي الكتب، أن تسألها أمها: ما سبب بسمتك؟ فيحمر وجهها خجلا، تمنت العودة للوراء عشرين عاما أو أقل لتصبح زهرته البرية المتفتحة للتو، الغضة، التي يفوح عطرها كل يوم ويزداد حلاوة بالندى المتساقط، رجعت عشرين عاما من الخيال والحب والأمنيات، لكنها اصطدمت بما هو محزن من الذكريات؛ لأنها في مطار يشبه هذا وأجواء لا تشبهها. كان بجوارها رجل تزوجته، قررت أن ترحل وتتركه للأبد، ذهبت يدها على بطنها الذي تمدد أمامها قليلا وتحرك في أحشائها بعضه. قررت الابتعاد عن فكرة الرحيل، فما ذنب صغيرها أن يتربى بعيدا عن أبيه؟ اليوم تمدد حب في الصدر تملكه فلا تستطيع أن تبتعد عنه. تجدد حزنها على الفراق،

شعرت بالألم في رأسها. لم يكن هناك زحام، كأنه أراد أن يبعدهما عن عمد. لم يخف من البعاد، ولم يهتم كثيرًا بعد أن سكنت قلبه، لم تعد ذكرى، أو مجرد حروف على ورق، أو حالة خوف أو قلق، بل أصبحت وطنا.. امتطى كل منهما خطواته مودعا لحظات اختلساها عنوة من الزمن الذي استدار كثيرًا لهما، كانت رياح باردة تودعهما محاطة برذاذ المطر وأشجار تقاوم مناخا صعبا ومتقلب المزاج. كانت مدينة وخليج وكل ذكريات نبتت ففاح شذاها الذي عطر مستقبلهما. تغير المطار الذي يراه دائما غصة في الحلق. لا يجمع له إلا فراقا عمَّن نحب، كم حمله خارج أرضه طريدا حتى من نفسه! وكم دخله لتلفظه مدنه، ليصبح بينهما مجرد تأشيرة. كان يعيش ثورته منفصلا عن العالم. أيقظته خطواته التي تعثرت في حقيبة امرأة أمامه، نظرت له بتجهم غريب كأنه يعاكسها، هز رأسه لها وتأسف. لكنها لم تقبل أسفه. كانت تحاكي الخمسين، لكن نظرتها ودلالها بنفسها أنها بالعشرين. ضحكت «مريم» وعادت لخطواتها. كان يسير بجوارها يسحب حقيبته ويضع معطفه على يده الأخرى، تمنت لو تعلقت بكتفه الآن. شعور جريء تملكها بأن تقبِّله وسط هذا العالم ولو اعترفت أنها أحبته أمام كل الموجودين بالمطار حتى لو كان أكثر من نصفهم لا يفهمون لغتها. كان وسيما، خطواته المشدودة، نظرة عينيه الراحلة خلف حلم ثائر، ابتسامته المشوبة بالخجل، الحياء الذي يغطيه، قسماته المريحة التي تشعرك أنك تعرفها منذ زمن. شجاعته بعدم خوفه من الموت، رجلاً يستدعي الموت في سبيل حريته، مضت بجواره رافعة الرأس عابرة على ماضٍ مؤلم، مستقبلة الغد بشكل إيجابي. جلسا معا في انتظار الطائرة. تركها مع الـ«آي باد» تسجل بعضا مما مر. كانت ترسم صورته على شاشتها وتسجل ملامحه.

صوت المذيعة أعلن عن اقتراب الإقلاع. تذكَّر تلك الراحلة إلى أمريكا التي ودعته منذ يومين، وتذكر «وليد» الذي غاب في برلين. ماذا سيفعل عندما يعرف أنني اشتريت بيتنا القديم؟ «وليد» تعلقت ذكرياته بعروق الخشب بامتداد البيت، بشجرة التوت أمامه. كم تسلقها وجمع التوت الذي أحبه. «وليد» سيفرح لأن الحياة جزء منها يرتبط بالماضي حتى بعد الموت نرتبط به، الماضي أعمالنا التي تشكلنا ونواجه بها الحاضر، هي طريقنا نحو الجنة أو النار. «وليد» أحب ابنة جيراننا «نجاة». كانت طويلة وجذابة، هكذا كان يصفها، لكنها لم تحبه. نسي حبها تماما فكما كان يقول:

- أقسى أنواع الحب أن تخدع نفسك بحب أحادي فأنت أشبه بمن يخيل له أن الكثير معه في صحراء خالية ليعيش كشبح.

يضحك بعدها وهو يقول:

- مؤلم جدًا أن ترى حبيبتك أو من تصورت أنها كذلك شبحا في صحراء مشاعرك.

مضى «وليد» وتناسى هذا الحب المسفوك دمه وتزوج ألمانية جميلة وجذابة.. إنها المرأة التي كان يبحث عنها. جلس بجوارها، لم يشعر إلا بوجع يحيطه، وحالة من الألم تسكنه كلما تذكر أنه غريب وأن أخاه أيضا غريب، قرر أن يترك وجعه الذي لا يغادره مثل حقائبه. كان رأسها على كتفه. أيقظها من نومها العميق، تأسفت له قائلة:

- أزعجتك وأتعبت كتفك.

رد مع ابتسامة:

- فعلا.

ضحكت وهي تضرب كتفه. شعر أن العالم تبسم لها وأن الفرح قادم حتى لو كان يشم رائحة الدم التي تفوح من كل ناحية. لم يرَ مضيفة

ولم تلفت انتباهه ابتسامة منهن، أصبحن في حكم العدم، هكذا الحب يغلق عينيك عن رؤية الآخر. هبطت سلم الطائرة، بينما كانت مشاعرها تصعد اطرادا، من عشر سنوات كان هبوطها من أجل أبيها، لكنها لم تستطع إلا أن تودعه. اليوم تودع من بجوارها بعد قليل والطريق قد يكون معتما وموجعا. لم ينظر للضابط هذه المرة، ولم ينتظر كلمة المرور. شعر بأن كل شيء تغير، وأصبح في الذاكرة، تشبث بحلمه، وتقدم مستبشرا أن الغد القادم أفضل بكثير. استوقفته كلمة الضابط:

- أنت؟

استدار بابتسامة:

- أنا!

هز رأسه الضابط مشيرا لأمين الشرطة:

- تفضل معنا.

وقفت مندهشة مما حدث.

عادت وسألت الضابط:

- ماذا حدث؟

الضابط في تجهم:

- لا شيء، ربما تشابه في الأسماء.

خرج من المطار مبتسما على غير العادة. ركبا سيارة واحدة، كان الطريق منسابا، على الرغم من بقايا المطر. كلما اقترب بيتها شعرت بدفقة في قلبها. تبادلا بعضا من النظرات التي ترجو من الأخرى ألا تودعها إلا على أمل اللقاء القريب. بالمقربة من بيتها شعرت أن العالم تغير، وأن بيتها الجميل أصبح ضيقا عليها. فتح الحارس باب بيتها الكبير، بوابة تشبه إلى حد ما بوابة فتاة الشطرنج، نزلت من السيارة،

وأشارت بدموعها، ثم ترجلت وحدها بعد أن حمل السائق الحقيبة وهو يردد:

- لماذا لم تتصلي بنا يا هانم؟

لم ترد، ولم تكن في حالة تسمح بالرد. استدار السائق وهو ينظر لذلك الرجل الذي كان بجوارها. أشارت بيدها ومضت. كانت درجات سلمها لا تشبه درجات سلم الطائرة، لم يكن بجوارها، لكن ذكرياته تصحبها، رأت بيتها ضيقا وغريبا، ارتمت على أول أريكة بجوار النافذة، تتبعت ظل ذكرياته وهو يعبر بوابة البيت. أشارت مرة أخرى تودعه. من هنا غادرت الكثير من الناس، لكن قلبها أُخذ منها مرتين مع الراحلين: مرة مع صغيرها وهو يُدفن، ومرة الآن. لأول مرة تسمع نبضات قلبها وتشعر بخالج في صدرها. وقفت وصعدت السلم من أجل أن تستريح من عناء السفر، أخرجت ملابسها، حملت فستانها العشبي وقبَّلته، رقصت معه، لامست أنامله. كانت تشعر أن عالما يسرقها من كل شيء، ارتمت على فراشها وهي تنتظر متى ستراه. آخر ما تذكره نظرته وهو يردد:

- الذين يعيشون في أبراج عالية لا يرون من ينامون تحت الجسور.

فهمت مقصده، قررت أن تأخذ سائقها وتلف به في الشوارع، ستجده مع كل صغير يبحث عن لقمته وسط المهملات وكل فتاة تلتحف السماء تحت جسر من الجسور. عرفت أن الذين يغلقون أبواب قلوبهم في عيون هؤلاء قساة، لا يستحقون أن نصفهم بأنهم بشر. عرفت أن البرد لا يشعر به إلا الفقراء وهم يلتحفون السماء ويفترشون قسوة الأرصفة.

كان التاكسي يشق الزحام وكانت القاهرة مختلفة في عينيه كأنها عروس تستعد لعريسها بعد أن طال غيابه وحلمت به كثيرًا. على الجانب طفل يلهو بجوار القذارة، رجل يتبول في الشارع، وهناك من يتبول في

حمام سباحة، هذا من برد الماء في حر الصيف وهذا من برد الشتاء الذي لا يجد منه مفرا أو مأوى. كلاهما يتبول. لم يتكلم السائق، ولم يتحدث «سالم» معه. كان أشبه بمن يرصد كل بيت في تلك الشوارع التي ضاقت بأهلها، فتح نافذة السيارة بزر بجواره، لا تشبه التي كانت تنقله من قريته للمدينة، كانت نوافذها مفتوحة صيفا وشتاء، وعلى المتضرر ألا يركب. وصل البيت، كان برد الشتاء يهزم العظام، شعر به يهزمه ولا يجعله يقوى على الحراك، شعرت به أنامله التي تجمدت كثيرًا وهو يحش البرسيم المندى بقطع الثلج الصغير، كان ينفخ أكثر وأكثر كي يعاود الحش. مضى زمن الأرض وزمن أبيه وزمن الضعف والخوف. اليوم أصبح رجلاً يستطيع أن يغادر عالم الخوف بلا عودة..

دخل بيته، وجد جميل سعيد أمامه.

فرح «جميل» لرجوعه وكأنه ينتظره..

استغرب «جميل» لعودته سريعًا، قائلاً بلهفة:

- يا أستاذ، ماذا حدث؟ والله القاهرة منورة بك.

- منورة بك يا «جميل».. كيف أولادك؟

- بخير والله.

صمت والدمعة تقف على جفنيه.

- ماذا حدث؟

سأله بخوف..

- ابني يا أستاذ، ابني «محمد»، من كذا يوم تعب، أخذته إلى المستشفى، جارك الدكتور نبيل - الله يبارك فيه - عمل له تحليلات..

- فيها إيه؟

- سرطان.

تسابقت دموعه في سباق الحزن، وبخطوتين ارتمى في حضن «سالم» ليضمه ويربت على ظهره. ضم «جميل» وهو يبكي على أغلى ما لديه، على ابنه الصغير الذي يتألم في صمت ككل صغارنا المحرومين من حقوقهم. ضمه وهو يقول لـ«جميل»:

- وحِّد الله.

- لا إله إلا الله محمد رسول الله.

خرجت من قلب «جميل» تشق العسر.

- إن شاء الله ربنا يشفيه. هل ذهب للمستشفى؟

- الدكتور نبيل جارنا كلم مستشفى سرطان الأطفال (57357). غدا سأذهب للمستشفى إن شاء الله.

- إن شاء الله خيرا، وسيشفى قريبا..

- يا رب.. دعواتك يا أستاذ. عارف؟ سأذبح عجلا. وكمان.. والله...

لم تخرج كلماته، ظلت حبيسة مع صوته المكتوم بالبكاء.

ضمه برفق، وربت على ظهره، ثم أخرج من جيبه مبلغا من المال وهو يتمتم بالدعاء، ويعلن أنه من سيشتري العجل، بل عجلين؛ ليتركه ويصعد السلم حاملا حقيبته بعد أن رفض نهائيًا أن يحملها عنه «جميل».

دخل بيته، بحث عن غرفته وأريكته، ذهب للنافذة، دخل غرفة واحدة تلو الأخرى وكأنه يبحث عن ذاته التي تركها ورحل. بين ذكريات الأمس وذكريات ما مضى من عمر. تمنى لو ثاروا، وغضبوا، ورفضوا الهوان والقيد، وخرجوا إلى الشوارع مستقبلين الموت.

كان مكتبه كما هو بكتبه وأقلامه، وبقايا علبة دخان وأعقاب سجائر عليها حمرة شفاه. نظر من نافذته، كان كل شيء مختلفا، الوجوه أصبحت لا تعرف الابتسامة المقامرة على حريتها، ابتسامة هرم جعلت

شعبا بأكمله يمضغ ألما، ويلوك حزنا. شعر كأنه غاب عمرا وليس يومين فقط؛ فمصر كلها في مخاض ولادة، لكنها ليست متعسرة. ارتمى على أريكته، ترك غفوة تتملكه مع حلمه، ومع المصعد، والعطر الذي يدوخ، ومع دمعة البواب على ابنه من مرض لم يترك بيتا في المحروسة، إلا واحتل أحد أركانه، وأنهك كل من حوله؛ لينام بين حزن وابتسامة. استيقظ على رنة هاتفه برسالة. قرأ الرسالة، وقف يصلح من ملابسه، وتحرك نافضا غبار النوم من عينيه، وناسيا كل ما مر من عمره، حاول أن يعيد الرسالة بكلماتها القليلة: غدا. شعر بالفرحة. لأول مرة سيتنفس الحياة، حاصره الجوع والعطش، أراد أن يمرح ويجري في الشارع ويصرخ ويرقص عاريا، وينسلخ من كل ما مر من عمره، قرر أن يحتفل عند النيل. كانت ذكرياته وأسراره تتشكلان أمامه، اشتما نسيما مختلفا؛ ليردد بصوت مرتفع:

- جنة بمذلة لا أرضى بها وجهنم في العز أفخر منزلا..

هذا البيت الذي يحبه، سمعه كثيرًا من أبيه وهو يحكي عن عنترة بن شداد وقصة حبه كما يحاكيها أصحاب الربابة قديما وهم يمرون من القرى، تعلم منه أنه لا انحناء حتى لو كان نعيما من نعم الدنيا، تعلم منه الثورة، هكذا يعلم الكبار الصغار دون أن يشعروا. الليلة رأى القاهرة له وحده، تحرر من الخوف، نفض غبار الذل. وقف أمام النيل يشاهده، يتأمل أسراره. توحد معه، قرأ ما هو قادم. ترنح نشوة، واستنشق هواء القاهرة، ملأ رئتيه، اتجه ناحية بيته القديم بعبق سنواته، تمنى لو كساه الورد والياسمين. وعاد بلد الحضارات كما كان. قفز سلمه داخلا بيته المظلم، لم ينظر من النافذة، ولم يشتم إلا عبيرا ملأ أرجاء بيته الشاعر بفرحته، وأريكته الحاملة أسرارا كثيرة من حب زائف، ومحاولات فاشلة لأن يجد امرأة يحبها. رائحة العطر ما زالت بقاياها تملأ أريكته، وحركة

الأقدام المترنحة على سلمه أشعرته بقدومها. غازلت الباب برفق، فتح الباب، ارتمت على صدره، ومع ثيابها الشفافة ونهدين تحركا للأمام كأنهما جندان في غزوة أرادا أن يكتشفا أرض معركة، لكنه لأول مرة لم يشعر برائحة عطر امرأة؛ فرائحة عطر الغد تملأ أرجاء قلبه. دخلت ليعود الصمت حليفه، وتتوه منه الكلمات، أخذها من يديها، ارتمت على أريكته، تقلبت بحالة من حالات الإحساس بجمال الأنثى، شاعرة أنها تمتلك العالم، استيقظت من نومها، كانت قدماها عاريتين ورجل يجلس أمامها.. قامت مسرعة ومتذكرة ذلك الذي اقتربت منه، ولامست شفتيه ذات يوم قريب، يومها لم يتحرك وهي تحاول أن تلامس عشب صدره فأبى، كانت حرارته تملأ الكون، وصليل رجولته في كل مكان. لم يقترب.. ابتسمت، وبصوت منخفض سائلة:

- أأنت؟

كان سؤالها برغبة تتعدى حواجز الأزمنة والأمكنة وأعراف الحياة، محترمة رجلاً يحترم ذاته ويتحكم في شهواته، رأته رجلاً في وقت ندرت فيه الرجولة. وهي كأي امرأة تحلم برجل تحتاج أن ترتمي على صدره، وتشعر بنبضه وتحتاج قلبا يضمها في أرجائه، يسكنها ويأخذها، لتكون الجزء الذي لا ينفصل عنه أبدا، كم تألمت لأنها لم تجد هذا الرجل الذي تمنته، على الرغم من بحثها المستمر حتى أضناها البحث، فسلمت بالأمر الواقع وأصبحت العزلة طريقها واكتفت بمشاهدة الأخريات اللائي ينعمن ببيت ورجل وأولاد، وإن لم يكن هناك رجل فهناك أولاد، لكنها دائما ما اعترفت أنها ربما تكون هي جزءا من المشكلة..

لأول مرة تخشى رجلا وتهابه، كلهم يتذللون تحت قدميها طالبين همسة، ويرتمون، ويلهثون. هو رجل غير الرجال، رجل اللحظة والوقت.

تمنت لو همَّت به وهمَّ بها، لو غلَّقت كل أبواب محاربه، وانفردت به، وارتمت على صدره؛ لتشعر بحنو العالم كله. أبحرت في أحلامها، وأبحر في رسمه، لكنها لم تغضب من رجل الرسم، ظلت تتأمله.

لم يكن يشعر بها. حاولت أن تقتحمه بنظراتها بحركة أناملها، وهو كما هو مشغول برسمه، وقفت بجواره مبتسمة ناظرة في لوحته.. ضحكت وعرفت أن هما أكبر يشغله..

نظر لها وابتسم، بادرها:

- أين كنت؟

- أيهمك؟

- مجرد سؤال.

- جارك.

- من؟

- «نبيل».. أتعرفه؟

- الدكتور نبيل؟

- نعم هو.

ابتسم دون أن يتكلم.

- لماذا ابتسمت؟

- أمر عادي جدًّا أن أبتسم.

- أين المطبخ؟ أتريد فنجانا من القهوة؟

- عز الطلب..

- يا سلام، عيوني. قل لي: أليس بعيدا؟

- ماذا؟

- لا أعرف، لكن ألا تعرف أين تعيش؟

كانت تصنع القهوة وقلبها ينتفض من هذا الرجل الذي مارس معها الصمت أكثر، فجعل عقلها يعمل بكل طاقاته.

- كيف عرفت في أي شيء أفكر؟

- انظر إلى عصفورك..

- عصفوري الطائر!! يا سلام، أتحبين الرسم؟

- أعشق الرسم، وأنت رسام.

هزت رأسها ثم قالت:

- اسمح لي إلا الرسم لا أعرف أبي فيه.. أنت تشخبط.

ضحك بصوت مرتفع قائلا:

- فعلا، أجيد الشخبطة، عندما أشعر بالألم والوجع يحيطان بي، ألجأ للقلم أو الفرشاة، وغالبا ما يعاندني القلم فلا تكون أمامي إلا الفرشاة فأرسم، قد يخرج رسمي مضحكا بالنسبة للآخرين، لكنه بالنسبة لي أفرغ جزءا من الألم.

- جميل.. أنا أيضا أحاول دائما أن أنتشل ما بداخلي من مشاعر فأخرجها ألوانا، لكنها دائما ما تخرج ألما، أتعرف؟ دائما ما أضحك إذا أردت أن أرسم فرحا أجدني رسمت بيتا وحديقة وطفلا كي أبكي بعدها.. هكذا لا نستطيع أن نهرب من وجعنا.

مسحت بعض دموعها ثم نظرت له سائلة وهي تحاول الهروب قائلة:

- لماذا تعيش وحدك بين جدران بيتك المظلم؟

- لأنني مسافر دائما..

- أمس الأول طرقت على باب شقتك لأشكرك، لم أجدك، أين كنت؟

- سافرت.

- أين؟

- دبي.
- تتسوق؟
- زيارة لأصدقاء، انتهت سريعًا وعدت.
- جميل. أعجبتك القهوة؟
- الحقيقة كثيرًا..
- رائع، كل ليلة سأمر من هنا أصنع لك فنجانا من القهوة محلى ببسمتك الرائعة.
- أهلا بك، فأنتِ ضيفة جارنا العزيز.
- عدت مرة أخرى لسخريتك.
- أبدا سيدتي.
- ما قهوتك؟
- زيادة.
- حنون أنت؟
- لا أعرف.
- يقولون كل من يشرب سكر زيادة يكون حنونا وكريما و...
- يا سلام!!
- هم من قالوا، لست أنا. عند وعدي، سأمر عليك كي أصنعها لك. هل ستكون موجودا؟
- ربما أكون، وربما لا.
- سأمر إن وجدتك، سأصنع لك فنجانا من القهوة، ثم أرحل.
- تعالي، ما اسمك؟
- اجعلني طفلة مولودة على يديك، وطهِّرني من رجس أيامي التي مضت. وعد سأمر شريطة أن تكون هنا.

- والسيد نبيل؟

- جارك، أنت لا تعرفه، ولا تعرف من هو لي.

كان رأسها يهتز عندما تذكره وكأنها تحذره.

أجابها شاعرا بهمٍّ في كلماتها:

- الحقيقة، لا.

- «نبيل» هو أحب الناس لقلبي، ما تبقى لي من هذه الحياة، وأنا الباقية له من هذه الحياة..

- كيف؟

قالها مندهشا.. كشفت له سرا، تعلم من حكاية الجنية قديما أن سوء الظن قد يدفع إلى شعور بالذنب لا ينفعه الاغتسال.

- أنا امرأة أحبها وأحبته، لكن ككل حال أجيالنا لم نستطِع الزواج لأمور كثيرة، وعندما تلاشت لم نستطِع، كانت ثمار جوز الهند قد جفت، أصبحنا غير قادرين على تقبل الفكرة، فأصبحنا صديقين نجتمع نحن والشلة، وكل واحد منا له حياته وأعماله.

ابتسم شاعرا معها بنصف ألمها، مؤمنا أن الكثير ممن يفقدون لذة الحياة يهربون، ويضعون لأنفسهم بعض المبررات للخيبات التي قابلتهم، ليعبروا الطريق وهم مبتسمون.

- صحيح، تخيلي حتى الآن لم أعرف اسمك..

- معقولة؟

قالتها، ثم أطلقت ضحكة قائلة:

- اجعلني ما تحب..

- أحب، يا له من اختبار صعب، وصعب جدا..

- ما وجه صعوبته؟

- اختيار اسمك!

قالها ثم تداعت له كل الجميلات. هز رأسه وقال لها:

- ما تحبين.

قالت وهي تضحك:

- وهو كذلك، سأكون لك كل يوم واحدة أحببتها يوما شرط أن تحكي لي عنهن.

- غريبة أنت!

- لست أكثر منك!

- غرباء نحن بني البشر بحق، أحيانا بعض الناس يُدخلون البسمة على قلوبنا بابتسامتهم المغلفة ببعض الجرأة، على الرغم من أننا يمكن أن نرفض ذلك ظاهريا ونتقبلها بيننا وبين أنفسنا. الحقيقة أنني سعيد بمعرفتك..

- وأنا أكثر..

- نستغرب من أنفسنا، ونندهش عندما نقابل أناسا مختلفين مثلك!

- عن نفسي لا أستغرب ولا أندهش من ذلك مطلقا؛ فدائما الغرباء يملكون أمرا مميزا يجعلك تفكر وتحب أكثر وأكثر..

- شكرا لك..

- عفوا سيدي..

- ماذا تعملين؟

- سيدة مجتمع، ولتقُل امرأة لا عمل لها غير أن تنفق أموالها على أشياء فارغة، مثلا أشتري كلبا أو قطة أو حتى أشتري قردا..

- ومن أين لك المال؟

- ورثته ككل شيء نرثه فنضيعه.

- لماذا لا تغيرين من نفسك؟

- أنا أم أنت؟

- أنا وأنت!!

ضحكت، ثم ذهبت بجواره، نظرت في عينيه عابثة بشعره منحنية قليلا، قبَّلته بسرعة، ثم رفعت وجهها قائلة:

- نحاول أن نبحث عن التغيير حتى داخل أنفسنا من أجل أن نرى الحياة، وحتى يحدث لنا ذلك نسير بخطوات متعثرة في أوقات كثيرة؛ لذلك شعوري بالانكسار يساويه شعوري بالنجاح؛ فالحياة متساوية بوجهيها: الحلو والسيئ.

أنهت الكلام مع ابتسامة. تحركت ناحية الباب مخلفة رقم هاتفها، مؤكدة أنها تتمنى أن تسمع صوته، مع رقم هاتفها كان عطرها المختلف عن عطر من امتلكت قلبه واحتلته.

هزت رأسها مودعة المكان والرجل الذي جعلها تكشف أسرارها وهي راضية؛ لأنه لن يكون إلا عابر طريق، وربما لن تراه مرة أخرى مكتفية بذكرى تركتها، دون الاهتمام بما يحمله لها، تعلمت بعد رحلة طويلة من التجارب تجاهل الآخرين، حتى لا تشعر بألم النظرة التي لا تحكم إلا بالظن السيئ، وتعلمت أن البعض يتركوننا دون إبداء الأسباب، فما علينا إلا أن نكتب خلفهم بعدا للقوم التافهين إذا كانوا يستحقون ذلك، لكنها لم ترَ فيه ذلك، رأته رجلاً رائعًا. ودعها مدركًا أن هناك أحدًا لا يشبهك لكن تتمناه، والبعض يشبهك لكن لا تستطيع معه الحياة. ارتمى على أريكته، ومعه قبلتها التي خلفتها على خده. بحث عن هاتفه من أجل أن يسمع صوتها فقد اشتاق لها ولا يعلم سببا غير أنها امتلكت قلبه ببسمته التي تذيب أجاج الأيام الماضية في نهر بسمتها وحنانها..

- مساء الخير.

- قل صباح الخير.

- صباح الخير والجمال.

- كنت سأحزن لو لم تتصل.

- هل أستطيع؟

- لكنك استطعت؛ فمنذ ساعات لم تفعل.

- الحقيقة أردت ألا أرهقك.

- بصوتك.. ماذا ستفعل الآن؟

- سأنام قليلا.

- ألم تنم؟ ماذا صنعت في غيابي؟ هل مررت على خاطرك؟ هل كتبت ما خططناه معًا على رمل أفكارنا؟

- ما هذا الكلام الجميل؟

- بعض مما لديكم، أيضا نستطيع أن نقول مثلك يا أنت. هل حان موعد نومك؟

- ليس بعد.

- لماذا؟ عليك أن تستريح.

- إن شاء الله سأنام قليلا.

- تصبح على خير..

- وأنت من أهل الخير.

تركها دون أن يقول لها شيئا عن الغد، هو لا يعرف ماذا سيحدث فيه.. انتظر الفجر الجديد يشق ظلام عمره ويعيده للحياة مع حلمه المتشكل من حكايات الطفولة، وأن يدب الأرض بقدميه النحيلتين. قام من نومه مع أذان الفجر، نزل للصلاة، تنسم الفجر وهو عائد، جهز فنجانا من القهوة،

نظر أمامه للصورة المواجهة لمكتبه، سرح في الصورة، هز رأسه مع كل رشفة، كان صوتها يطارده ليسترق السمع:

- أأعجبتك القهوة يا «سالم»؟

- تسلمين يا ست الكل.

- محوجة.

- جميلة لأنها من يديك.

- تسلم يا ابن بطني، يا رب اجعله غالبا لا مغلوبا.

- يا رب يا حاجة.

- يا حاجة؟! تفتكر يا واد يا «سالم» ربنا هيكتبها لي وأقدر أحج؟

- مفيش حاجة بعيدة عن ربنا.

- ونعم بالله، ونعم بالله يا «سالم». كنا فين وبقينا فين. نِعم ربنا لا حصر لها. رأينا أياما يا حبيبي صعبة. الحمد لله أحسن من غيرنا، رضا والحمد لله.

- الحمد لله يا حاجة.. أيام ومرت.

- ربنا يحميك يا حبيبي، خلي بالك، لا تتكلم كثيرًا في السياسة مع العيال في الجامعة يا «سالم»، محشورين في داخلكم، طريقهم وعر، والله وعر يا «سالم».

عندما انتهى، قام ناحية الصورة وأنزلها وقبَّل جبين أمه وأبيه، ثم علقها مرة أخرى، ليعتذر لها أنه سيخالف كل الوصايا. اتجه ناحية دولابه، ارتدى ما يناسب يومه المختلف، والمودع فيه زمن الخوف والاستبداد، ووصايا أمه، وخوفها من أناس لا يعرفون إلا قهر الآخرين وظلمهم. قفز درجات سلمه، في نهايتها كان جميل سعيد يمسح السلم، توقف عن العمل، اتجه إليه. كانت يد «سالم» تضمه، وتربت على كتفه،

همس في أذن «جميل»، ثم تركه. كانت خطواته تقوده نحو صديقه الذي حفظ سره، نفس الطريق الذي يسلكه محملا بهواجسه الأمنية، الليلة الماضية ودعها دون أن يعرف سببا، غير أن شعورا جميلا بالانتصار على الخوف تملكه، شعورا داخليا لا يفسَّر إلا أنه من عند الله، اليوم ودع هواجس الكرش، ونسيه تماما، أصبح في ذاكرة التداعي من أجل الضحك وليس من أجل التأنيب أو الضياع. مضى بخطوات راسخة تدب الأرض تعلن عن قادم. دخل المقهى، احتسى فنجانا من القهوة، ثم تحرك ناحية النيل، جاءه ولن يحكي له دون خوف من أن تعلق أسراره بأي مكان، راقب ماءه. مشى بجوار السور الحديدي. لم يكن هناك أمر مختلف، كل شيء كما هو، عبر كما يعبر رجال الشرطة بالمطار، رفع يده، ونفث فيها مخرجا بعضا من السخونة القابعة في أعماقه، ساده القلق، لم يكن الشارع مختلفا كما تمنى، وكما رأى في حلمه. عبر الطريق في الاتجاه الآخر، ربما يجد من يبحث عنهم، عبر الجهة الأخرى طاردا الخوف والقلق. وقف بجوار الكعكة الحجرية منتظرا. شاهد الشمس وهي تزيح ضباب القاهرة الكثيف وضباب يناير وهو يودع العالم بمشاعره الباردة. كانت هناك وجوه مختلفة يجمعها حلم واحد. انتشروا بين الناس، بعد لحظات شعر أن رذاذ الحرية يتساقط وأن صوتا ينادي على الناس لينزلوا معهم، تحركت الدماء في عروقهم، استعذبوا الحرية التي شعروا بها لأول مرة. اختفى الغيم تدريجيا، تحول إلى نهار مشمس على غير عادة يناير، وثلاثاء مختلف دب فيه الدفء في أيام تملأ البرودة الأجساد والقلوب. كان الشباب يستقبلون حريتهم. لم ينتظروا الأربعين، كان كل واحد سهما حارقا للخوف، كسروا كل شيء. مرت الساعات والناس يتزايدون، ضاعت ذكرياته، وتلاشت أسراره، أصبح لا يرى إلا جديدا في

الحياة. كل شيء أصبح مختلفا: العطر والنساء والطرقات، حتى النيل لم يصبح كاتم أسراره. أصبح ملهما لثورته، تبدل على غير عادته. إحساس بالصراع بين ماضٍ كئيب ومستقبل لا يعرفه، ابتسم ليطوف الميدان كأنه في بيت الله، يرى حلقات متشابكة، أيادي تجمعت، وعيونا شاخصة، صدورا تنتظر طريق الرصاص!! هتافات ترتد في الميدان، هاتفه يخبره بأصحابه في كل ميادين مصر، السويس تشتعل.

رد فرحا:

- أصبحنا أكثر من أن نُحصى.

- الحمد لله..

- سلام..

- سلام..

مرت الساعات، تشابكت الأيادي، عيون ذاهبة خلف المدى تحنَّت بزرقة سماء القاهرة، القريبة، البعيدة، التي يفيض منها الحنان، مآذن في كل جانب، أصوات الكنائس الناهضة من نوم عميق. زحام يمتد. أصوات تعلو وتستعذبها، انتظار ليوم طويل يستعذب ما تكرهه.

في وسط النهار كانت الحشود تتلاحم.. أصوات من كل الميادين تعلو في أذنه.. أقدام ثابتة.. كل من حوله في القاهرة الباكية الصارخة على ما ضاع. تبدلت أحلامه في لحظات، رأى حلما أكبر يفترش قلبه. ناحية الماء المتغير كانت خطواته، وجدها أمامه على صفحات النيل تعانق موجه. فاحت رائحة عطر من خلفه هزته، استدار، وجد امرأة تشكلت به، جاءت له في الوقت الصحيح، تتبع خطواتها، ونظراته تسأل: هي؟ كانت بشعرها المنساب كحقول قمح، وحركة قدميها جعلته يقترب منها أكثر. استدار ليكون في وجهها. غابت الكلمات. سيطرت حالة من فوضى الصمت،

تشابكت أناملها بأنامله الرعشة، مع شفتين خلفهما ألف سؤال؛ لتخرج حروفه:

- «مريم»؟

- «سالم»؟

- لماذا لم تتصلي؟

- خفت أن ترفض.

- أتعرفين...؟

سأل سؤاله، ثم صمت تماما.

- ماذا؟

كانت تريد الإجابة؛ فالمباغتة تصنع فارقا في مشاعرنا العميقة فتجعلها تطفو على السطح سريعًا وتنجو من الغرق.

- عرفتك من عطرك؟

قالها وقد احمر وجهه، عاد الريفي البسيط الذي يخجل إذا تلاقت عيناه عيني جميلة، فطرته التي عادت بعد تصالحه مع نفسه..

- عطري من أنفاسك أنت!

كانت تقولها وهي تحضنه بعينيها الجميلتين وتضمه في حنان وتشعره بسعادتها لأنها عرفت مثله.

- متفائل.

- وأنا أيضا!!

جعلا النيل خلفهما يشهد على قصة حبهما، ويحتفظ بها سرا من أسراره العابرة إلى المصب، ومشكلة لؤلؤة تزين أجياد الحسناوات. كان بجوارها يغني وهو متجه لحب أكبر وبحث عن حياة أفضل تبدأ معها قائلا:

- عدو عنيد، عدو سخيف، عدو كاره لشعبه.

ترك حروفه الصامتة التي خرجت معبرة عمًّا فيه من ألم وشجن، ككل أبناء بلده. أدرك أن الغد آتٍ، رأى الجموع تزداد والناس تتلاحم والشباب أصواتهم واحدة نحو كلمات واحدة تتجه قائلة:

- يسقط يسقط النظام.

ضحك وهو يردد:

- النظام!

صمت قليلا ثم سأل مندهشا:

- هل هناك نظام؟

سؤاله بمثابة سخرية ممن ظنوا أن نظاما يحكم في بلادهم. كل شيء تحكمه الفوضى والروتين والسرقة والتوريث.

نظرت له وهو يسأل السؤال: هل هناك نظام؟ كانت تشعر بغصة تحركت لتصل إلى حد أنها تخنقه وتخنق حلمه الذي ظل أكثر من عشرين عاما يكبر ويكبر.

ابتسم لها ابتسامة تعلن عن سعادته بمن أصبحت بالجوار، وتشاركه الحلم، لكنه وجد في عينيها محاولة البحث عن إجابة لهذا السؤال.

ضحك وهو يعتصر من الوجع قائلا لها:

- بلادنا كالمرأة الضعيفة المغتصَبة التي استُبيحت لكل الكلاب، يفضون بكارتها بلا رحمة، يسرقون بسمتها، ويتركونها تعاني ألم المهانة وحدها، دون أي خلق.

- وهل الكلاب الضالة تعرف خلقا؟

- لم يفعلوا وحدهم، بل تركوها لأبنائهم يمارسون نفس ما فعلوه من وقاحة.

- ألم تري أن كل شيء في بلادنا يورِّث كل شيء، حتى الرقص؟

انفجرت ضاحكة رافعة يدها وضاربة كتفه بشيء من الإعجاب وشيء من الحلم. ما أجمل أن تفض بكارة الخوف وأنت بجوار حبيبك الذي يمنحك قوة ويعطيك قدرة!! بادلها الضحكة تاركين التوريث خلفهما، ضاربين فكرته بأقدامهما المصممة على عدم العودة للوراء والرافضة لكل أشكاله. خطواته لم تكن مسموعة. كان كالصقر الذي يهبط وسرعان ما يحلق في فضاء الأمل المتسع أمام مداركه التي تمتلئ بما هو قادم..

كانت القاهرة تستظل بظلال أمان مختلفة، وسحب آتت كي يزهر الشجر ويخلع ثوب أحزانه. نظر للميدان وهو يتسع لا يضيق، لم يرَ مكانا كذلك إلا وهو يرتدي ملابسه البيضاء واقفا على جبل عرفات، يومها غسل كل ذنوبه وآثامه؛ ليعود للنيل خارجا لسانه بأنه تبرأ من كل أسراره. الميدان يشعر بما هو قادم، الميدان يستعد لأن يستقبل مولوده الأول. الليل يدخل في بطء لا يريد أن يودع يوما شهد على الوقوف أمام ظالم، يوما اسمه الثلاثاء 25 يناير. في منتصف الليل كان دوي الرصاص، قنابل مسيلة للدموع، هراوات تمتد من جهلاء، خراطيم ماء تحاول إطفاء جذوتهم، لم يعلموا أن النار التي امتدت في هشيم ظل يُغمس بمواد تشعله وتحرقه لا يمكن إطفاؤه، حالة حنق، وإصرار يزداد، وعيون شاخصة تستنجد السماء، حركة في كل مكان، والميدان يقاوم. لأول مرة يرى يوما مختلفا في كل شيء، ويستقبل الصباح وهو محنًى بدماء الشهداء الذين تركوا الدنيا بشرف. كان يوما مختلفا. في هذا الصباح توالت الأخبار. ازداد عدد الشهداء، تمنى أن يكون من هؤلاء الذين ودعوا الحياة بابتسامة رضا وبحثا عن حريتهم والوقوف أمام الظلم. ميادين مصر: التحرير والأربعين والإسكندرية، وفي كل شبر من

أرضها. حاول الذهاب تاركا أجسادا تلاحمت أمام الظلام، مر يشاهد الميدان وهي بجواره، نظر حوله، كانت أعدادا آتية من كل مكان، ومن كل ناحية، تعجب لتلك الأعداد سائلا نفسه وهو فرح:

- ألفظتهم الأرض بعد أن عاشوا تحتها زمنا طويلا وهم صامتون؟

هل آن لهم أن يصرخوا ويخرجوا أصواتهم المكتومة؟

التفوا أكثر وتماسكوا أكثر، ضوء الفجر يشق غباء هؤلاء السافكين، ويقتل الخوف من قلوب الثائرين.

مرت الليلة وانتشر النور ليملأ الميدان. مر بين الناس، أصبحوا أكثر إقبالا على الحياة، نفس الابتسامة، ونفس الأمل على كل الوجوه. الميدان يتسع أكثر للجموع الباحثين عن حريتهم، الأرض تشعر بأبنائها، تضمهم في رحمها، تتسع لهم؛ ليكتبوا تاريخهم. التاريخ الذي حلم به، وحلم أن يسطره بلا خوف، كانوا يتحركون، يحملون شعلة زيتها من قلوبهم التي لا تتوقف. مر الوقت والغضب يستعر، في ذلك اليوم كان الشعور بأنهم كسبوا الجولة الأولى، وأن كثيرًا قد تحركوا والميادين تزداد. نظر لها ومد أنامله لتتشابك مع أناملها، منشدين لحنا لم يسمعاه من قبل، مر ناحية المطاعم، شعر بالجوع، وشعر أنه في حاجة لفنجان من القهوة، لم يجد مطعما مفتوحا. تحرك سالكا الطرق الضيقة وهي خلفه، وجد مقهى مزينا بالشباب، شاهد الجميع وهم يسألون: ماذا سيحدث غدا؟ لم يرَ الخوف في العيون، لم يرَ إلا الصمود. كان سؤاله المندفع منه دائما، الذي يعبر عن تعجبه:

- كيف يتحول الخوف إلى شجاعة؟ ومن فجَّر فيهم ذلك؟

تذكر هؤلاء الذين ضحوا بأنفسهم وواجهوا الظلم، تذكر ضابط أمن الدولة وهو يقف أمامه في الذهاب والعودة، كأنه العبد الذي اشتراه له أبوه،

وهو ينظر نظراته الرخيصة، في كل مرة شعر بتعب في بطنه، كان ينتفخ منه، مثل الرجال الذين حبلوا بالألم والضنى والوجع، من لا يستطِع أن يصرخ تهتَّك أحشاؤه. وصلا المقهى، جلست أمامه مبتسمة غير خائفة، ملتحفة بغطاء الأمل في غد أفضل. طلب فنجانا من القهوة، وهي أيضا. نظراته لا تفارقها في حديث صامت، يريد أن يدخل إلى عينيها، يسكن فيهما؛ ليرى هذا الوجود بهما، وهي أيضا أرادت أن ترى هذا العالم من خلال قلبه. اليوم لم تخرج سيجارتها.

نظر لها ضاحكا:

- لكِ أن تشعلي سيجارة إذا أحببت.

ضحكت وسألته:

- أتحب أن أفعل ذلك؟

ابتسم مشيرا برأسه:

- لا.

عرفت أن مكانتها زادت وأنها اقتربت من احتلاله واحتلال عقله؛ لأنها جاءت في أيام مباركة. أيام تتطهر فيها من حكم ظالم. شرب فنجان قهوته سريعا، ونظر إليها ضاحكا وهي تحمل فنجان قهوته وتقلبه، كي تكتشف أسرارا. لم يعترض، خبأ بسمته خلف الشفاه، وترك قسماته تعلن عنها.

اندهشت كأنها اكتشفت سرًا، وككل النساء إذا أردن تذاكيًا تفوح منهم زكاوة تعطر المكان. عادت للفنجان؛ لتكشف النقاب عن سر الأسرار. بادرته وهي في حالة وجوم، طارحة ما اكتشفته بشكل سؤال كأنها عرَّافة ضلت الطريق فلعبت بنرد أحجارها على حبات من الرمال بعد أن تتركه يوشوش الودع، ذلك الذي يأخذ من لهيب النفوس، ويترجمها

إشارات ساخنة أو باردة تحمل مشاعر كمشاعره تماما. رفعت حاجبها لأعلى بشكل يحمل غضبا قائلة:

- أنت صاحب علاقات كثيرة، لكن...

انفجر ضاحكا وهو يقول لها بحروف ضائعة وسط ضحكته:

- أحتاج ما بعد لكن.. أريد أن أعرفها.. أرجوكِ.

نصف مبتسمة مجيبة عنه:

- لكن...

عادت لصمتها ونظرات عينيها تخترقه، لا تكتمل!!

- صدقت، ورب الكعبة.

قالها وهو يؤكد لها وكأنه أراد أن يؤكد أمرا ما في نفسها.

- رومانسي جدا..

- أشك يا أفندم.

- تسخر حضرتك؟!

- أأسخر من امرأة نافستها السماء في الجمال؟

- أفهم هذا غزلاً؟

- ورب الكعبة غزل جدًا!

ضحكت قائلة:

- سأكشف لك سرا آخر.

أخذت تكشف له من أسراره وهو ليس معها، واضعا يده على ذقنه، يحدثها صامتا مع نصف ابتسامة محشورة بين شفتيه، ويده القابضة على ذقنه سارحا في عالمه سائلا:

- لماذا تحاول كشف فنجان قهوتي؟

أليس هو الأنيس في وحدتي، ولغدر دنيا قذفت بي في محطات

مختلفة، ولا أملك إلا نسيانها حتى أستطيع أن أقاوم هذا الغباء المستحكم والمستبد، كي أظل على قيد الحياة، فأتذكرها بحركة شفاه لا تخلو من التعبير عن غضب، أو إحساس بفوات العمر ليكون فنجان قهوتنا المتشكل من أنفاسنا؟

كان صوته مقاطعا لها لتهز رأسها دون أن تجيب، شعرت أن هناك عالما مختلفا في عيون هؤلاء، يفلسفون كل شيء، ويرون أشياء لا يراها غيرهم، هم كمن يعزف على وتر لا يسمعه غيرهم، مؤمنون أن العازف الحقيقي من يطرب نفسه، ويترك طربه ساكنا في أعماق الآخرين. بابتسامة سمعت وهو يحكي، ظل مكملا كلامه بصوت أكثر ارتفاعا:

- أتعرفين؟ حلمت يوما أن أرقص عاريا من حزني وألمي.. أهذا يشعرني بالخيانة والانزلاق في بحر الشيطان؟

نعم ليس للفنجان ذنب بأنني أفضت بأسراري؛ ليكتشفها من جالسنا وخبر مني بعض ما يدور في أعماقي، فإذا ما نظر إلى خطوط الطول وخطوط العرض وهذه الرسوم التي قذفتها أنفاسي، يتفنن في التعبير وهو يعتقد أن نظراتي له هي نظرات إعجاب. الحكاية كلها أنني من شكَّل تلك العلامات المفهومة لكل من عرفني وخبرني ليوم، وعرف أنني أبحث عن عالمي الخاص، وحدي من رسم صورة الفنجان برشفة تلو رشفة متلذذا بالقهوة، وبعد الانتهاء، أكون تشكلت فيها، ومعي كل أسراري، وما مضى من حكايات..

قاطعته لتعيده إليها:

- أين ذهبت؟

- معك سيدتي.

- معي! ربما.

- معك!

- وماذا عن فنجانك؟

ضحك ثم قال:

- كاشف للسر لا يؤتمن!

ضحكت قائلة:

- أنا على صواب؟

- أعتقد أن كثيرًا مما كُشف هو بالفعل مكشوف.

انتهيا من كلامهما وعادا معا إلى الميدان مستقبلين حفاوة في عيون الشباب، طلب منها أن تذهب إلى بيتها، بعد إصرار تركته، وتركت معه قلبها.

كان ليل الأربعاء باردا جدا، ومع رذاذ الحرية تغطوا بحلمهم القادم، وبيقينهم أن الآتي أفضل بكثير. حماس شباب رفض أن يكون ضعيفا ومهانا.

مر الليل وجاء الخميس وأصوات الجميع تعلو وتعلو..

ازداد الناس في الميدان، وجوه تختلف عن التي يراها في الشوارع، عن التي ألفها..

رأى وجوها تحمل تصميما، جلس الجميع يعدون لجمعة الغضب وهو بينهم، كان هاتفه يرن:

- مساء الورد.

- مساء الفل.

- آسفة لم أستطع المجيء، غدا سأكون معكم.

- لا تأتي.

- لماذا؟

- غدا يوم صعب علينا جميعا.

- أتخاف عليَّ؟

من دون تفكير وبغضب:

- طبعا.

- لن أترك تلك اللحظات تمر مني..

قاطعها قائلا:

- لا تأتي.

- إن شاء الله، سلام.

- مع السلامة..

تركها ليعدوا لجمعة الغضب، استعدوا للصلاة في الميدان، واستعد أعوان «مبارك» للقتل. رفعوا يد الدعاء، وهم رفعوا البنادق. كان صباحا عجيبا، رجال لا تلين وشباب يقدم على الشهادة، وسيارات تحمل القتل بين فكيها.. جمعة مختلف، صلوا وهم واقفون، صلوا وهم يستقبلون رصاص النظام. تحرك في اتجاه كوبري 6 أكتوبر، شاهد أعظم معركة ضد طاغية عنيد. كانت هناك سيارات سوداء تدهس كل الواقفين بنمر السفارة الأمريكية، والرصاص من هنا ومن هناك، دماء تغطي المكان. حالة من القوة والدهشة بين كل المرابطين والمنتظرين. الجميع يتحركون بشكل دوائر دون تخطيط، حالة من الإيثار والتضحية بين الشباب الذي راهن عليه الجميع بأنه الفرس الخاسر. شباب «النت» المفصول عن الواقع.. ها هو يكسب أعظم معركة لمصر، معركة كسر قدسية الحاكم وإنزاله من رتبة المعصوم؛ ليكون عبدا يحاكَم على حماقاته مثله مثل الآخرين.. مر الوقت وهم يحملون الشهداء، النيران تشتعل في كل مكان. مرت الساعات وتحولت القاهرة لكتلة من اللهب، لم يدركوا أن ما كان لن يعود. جلسوا

يلتقطون أنفاسهم ويستعدون لما هو قادم، كان دخان القنابل يخيِّم على المكان، كان هناك شباب يعد. بعد ساعات سيعلن أنه هناك وأننا هنا.

علت وجهه الابتسامة على من راهنوا بأننا لسنا تونس. مصر بلد الأمن والأمان، مصر الحكاية التي لا تنتهي. ليس فيها ظلم، الناس يعيشون فوق خطوط الفقر، وينعمون بحياة مستقرة، لدينا الحكومة النظيفة، والحاكم المبارك القائم بين الله وعباده يطبق القانون على نفسه قبل الآخرين. ضحك مستدعيا المذيع الهرم المراهن على سحق من يحاول أن يخرب مصر وهو يقدم مباراة كرة قدم، وأن مصر مختلفة عن تونس، ثم ضحك ضحكته الهرمة كوجهه. شعور النصر على قسماتهم يشكل أحلى بسمة، بعد التقاط الأنفاس ولهيب القاهرة ودخول الليل بانتصار. حالة من الغليان بين الجميع، وصوت يأخذهم لعالم مختلف، وسؤال واحد: ماذا سنفعل؟ في الليل خطب في الشعب مرتعشا، وعلامات الشيب واضحة، والخوف مرسوم على قسماته. مرَّ الجمعة وشق السبت نوره فوق ظلمات الفساد، وبدأت حكايات البطولة بين الموجودين وغير المصدقين ما حدث، وكلٌّ يردد: نصر من عند الله..

تمددت كفها في كفه، شعر أنها حبة نرد سيرميها لينتهي الدور لصالحه. ربما تكون النهاية على يديها إذا كان حظه حسنا، يؤمن بالحظ الذي يأتي وليد العمل والجهد والعرق، العرق الذي تحتاجه أرض ارتوت بدماء الشهداء. في تلك الليلة، قرر أن يذهب إلى بيته ليغير ملابسه، وهي أيضا أيدت الفكرة، خرجا من الميدان، ذهب معها إلى بيتها، أنزلها، وعاد لبيته، وجد أمامه جميل سعيد.

- مساء الخير.

- مساء الفل يا أستاذ، أرأيت ما حصل بالبلد؟ خربت يا أستاذ، عيال

خربوا البلد، لا أعرف ماذا يريدون، البلد فل والله فل، كل حاجة تمام..

- يا جميل الجمال.. الواد أخباره إيه؟

- آه يا أستاذ، ذهبنا به للمستشفى، أطفال بعدد شعر الرأس ينتظرون الدور، مصر أولادها كلهم مرضى، يااااا، يا أستاذ، عيون حزينة، قلبك يقطع. المهم الآن الأولاد اللي ستخرب البلد، يا أستاذ أكل عيشنا وقف، حرام والله. الرجل قال لهم: سيسلم الحكم في شهر نوفمبر.

- «محمد» دخل المستشفى يا «جميل»؟

- نعم يا أستاذ، أمه معه، وأنا أذهب لهم كل يوم، والله يا أستاذ لولا الدكتور نبيل ابن الحلال - لا يتخير عنك أبدا - ما كنا سندخل إلا بعد سنة. مصر أولادها مرضى، وعندنا أكبر مستشفى لسرطان الأطفال.

- أرأيت الخيبة يا «جميل»؟ نفرح لوجود أكبر مستشفى للسرطان!

- الخيبة الكبرى في العيال التي تتظاهر على البطل ابن البطل.

نظر له ولحاله ضاحكا ومتعجبا من «جميل» الذي لا تفارقه دمعته على صغيره، ويلعن الظروف في كل يوم ومن تسبب فيها، الآن يدافع عن المجرمين والفاسدين.

عبر عتبات السلم سريعا، فتح باب بيته ذاهبا ناحية الصورة، كان هاتفه يعلن عن صوت يحبه قادم يذكره أنه على العهد وفي الانتظار.

فتح حاسوبه، وجد رسالة من «جرجس» كتب فيها:

- «سالم»، أعلم أن الأمر عظيم لديكم، وأنك تعيش أجمل لحظات عمرك، وأن أمانيك التي طالما ضحكنا عليها تتحقق، وأن هذا المجرم عليه أن يرحل، وأن يحاكَم على ما فعله بمصر الغالية علينا، «سالم» كم أسعدتني صورة الشعب المترابط، لا فرق بين مسلم ومسيحي، كلهم في حب الوطن سواء. في وسط هذه الفرحة عليَّ أن أخبرك بأمر لا بد أن تعرفه، في اليوم

نفسه الذي طلبت فيه حرية وطنك كانت «ماريا» تطلب خلاصها من هذه الدنيا، ماتت «ماريا» وتركت لك رسالة كتبتها وأمَّنتني أن أنقلها لك.

قالت إنها لم تحب غيرك يا «سالم»، وإنها تتمنى أن ترتبط بامرأة تشبهها وإنها ستحرسك دائما.

انتهت الرسالة ولم تعلم «ماريا» أنه أحب «مريم» تلك التي غرست فيه روح «ماريا» وطيبتها وحفظها للمحبة كما كانت تقول دائما. أغلق حاسوبه مقسما إنه لن ينساها أبدا..

غيَّر ملابسه، ونزل سريعًا للميدان، لم تعد القاهرة كما هي، وجد الكثير من الشباب في الشوارع يقفون وينظمون السير. وجد بلدا جديدا، وشعبا جديدا. في اليوم التالي كان الميدان يرتدي اللون الأحمر بصور الشهداء ومعه كل الميادين بعد انسحاب هؤلاء الذين دنَّسوا أرض مصر، وقتلوا بلدا، تركوا أماكنهم بعد أن فتحوا السجون على مصاريعها لخروج القاتلين والسافكين دم الناس من أجل إدخال الرعب في قلوب الضعفاء، لم يعرفوا أنهم خدموا الوطن واستطاعوا أن يحوِّلوا الأطفال إلى رجال؛ لتصبح شوارع القاهرة ومصر كلها أبطالا في سن الزهور. غرسوا حب الوطن بفعلتهم، وانقلب الأمر عليهم!! صور الشهداء تملأ الميدان. نزل الجيش للشوارع، شعر الجميع أن مصر في مأمن، لم يعد هناك رجوع للوراء، مر اليوم عظيما. اشتد البرد في منتصف الليل، تركها تنام في خيمة السيدات، وترك معها أصابع يهرؤها البرد، وجسدا يحاول أن يشعر بالدفء وقد لفت السماء سحبٌ قاتمة، تمدد على الرصيف بجوار الكثير من الذين يحتاجون القليل من الوقت، التحفوا أنفاسهم المدخلة الدفء. لم يشعروا بالبرد، ولا بصلابة الأرض على أجسادهم، ظلت نظراته تلاحق السحب في السماء، وتلاحق معها آمالا تتعلق

بالغد الآتي، والمغير تلك الخريطة المرسومة لهذا الشعب، المرتعدة أوصاله، الحزين قلبه على ضياعه وتهميشه، ذهب في النوم وهو يحلم ويحلم ويحلم، سمع أذان الفجر، قام من نومه، ليرى سعادتهم تزداد بهذا التناغم بين هؤلاء الذين جاءوا من كل فج حاملين أملا واحدا: التخلص من كل ظلم.. في هذا الصباح قرر أن يشرب فنجانا من القهوة، بعد أن انتهى طلب فنجانا آخر.

كان شعور السعادة يحيطهما، ما جعلها تحمل فنجانه سائلة:

- مصمم أن ما به ليس سرا؟

ابتسم وهو يحكي لها قائلا:

- أسرارنا لا يراها أحد، مكنونة في نفوسنا، تتصارع مع ملامحنا وأعماقنا من أجل التعبير، نستدعيها لتركب الخيل الجامحة.

كانت تسمعه صامتة، وجدت رجلاً يسيطر ويتكلم، كم تكلمت وكم..؟ الآن هي أمام رجل قوي..

نظر لها ثم أخذ منها الفنجان مكملا:

- أسرارنا تحيطنا وتشكلها حلقات فراغ لنرد عرافة، أو أوراق من يقرؤها بعد أن نكون قد لمسناها بأناملنا فلامست مشاعرنا، وهكذا تكشف أسرارنا، فأصبح كل من ينظر في عيوننا يرى أسرارنا!!

هنا عرفت أن الأسرار هي التي تظل داخلنا دون أن يراها أحد ونحن نكشف ما نحب أن يكشف، ونترك ما نحب في أعماقنا.

- لكن ألم تحب مرات؟

- بلى، أحببت مرات ومرات.

هزت رأسها:

- أين؟

- ضِعنَ..

حياتنا مجموعة من العلاقات المتشابكة بخيوط ملتفة ومعقدة، وأحيانا تكون مثل الشَرَك الذي يقنص بلا هوادة. علينا أن نتخير من يكون بالجوار، وإذا ما خُيرنا؛ فعلينا - دون تفكير - أن نختار من ضحى بذاته ونفسه من أجلنا.

- كيف كانت؟ جميلة؟ أجمل مني؟

- من؟

- حبيبتك؟

- انظري هنا - مشيرا لعينيه - تسكن حبيبتي الآن.

ابتسمت، ثم وقفت بعد أن مدت يدها له.

انتصرت لمشاعرها وانتصر هو لحبه، مرت الأيام والنصر يزحف من الميدان يملأ أرجاء الوطن في انتظار رحيل رجل ترك الآخرين حوله يعربدون، الآن يودع وطنا غير باكٍ عليه. رقص الميدان طربا وأصوات الصغار علت هنا وهناك فرحين بميلاد جديد. في صباح اليوم التالي خرجا من الميدان، يحلمان بغد يسوده الحب والسلام. نفس الخطوات على بساطهما الأحمر الحامل أول مشاعر حقيقية بينهما، التف حولها ملامسا شعرها المنساب، وفاتحا ذراعيه لحبه بعد أن ودَّع الخوف تاركا أنامله تعانق أناملها، منها أن يكونا معا لنهاية العمر، أخرج الجنية من جيبه وقذفها في أعماق صاحبه مودعا أسراره ومشاعره المضطربة، ليبدأ عهدا جديدا مع من يحب منتظرا أن يعود «وليد» و«جرجس» من جديد.

للتواصل مع الكاتب

Nagdyalnagdy@gmail.com

0096590044976 (الكويت)

00201000009658 (مصر)